
رواية
شواش
أحمد سمير سعد
CHAOS


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

شَواش

(Chaos)

شواش

رواية

أحمد سمير سعد

الطبعة الأولى 2016.

(c) دار ميريت

6 (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: 5797710 (202)

www.darmerit.org

merit56@hotmail.com

الغلاف:

المدير العام: **محمد هاشم**

رقم الإيداع: **2009/16204**

الترقيم الدولي: **978-977-351-467-3**

أحمد سمير سعد

شَواش

(Chaos)

دار ميريت
القاهرة 2016

حكايتي مع الشَوَاش

وقد تشوَّش عليّ الأمر واختلط والتبس وأنا أتفقد المعاجم بحثًا عن أصلٍ لغوي لل"شَوَاش "لأكتشف أن التشوّيش من تشوَّش ليس لها أصل في اللغة وأنها من كلام المولدين وأن أصله هو التهويش أي التخليط... فالتَّشَاوُش من التَّهَاوُش. أما الشَوَاش فهي الاختلاط، من شاش مادة (ش و ش) وحديثًا استخدموا الشَوَاش لترجمة اللفظة الإنجليزية chaos والتي تترجم أيضًا على فوضى والكايس chaos من أصل إغريقي وهي لفظة أنثى لربة قديمة، منها انبعثت الآلهة والكون، هي ربة الفضاء والفراغ والفوضى، هي فضاء بلا قاع تسقط فيه الأشياء إلى ما لا نهاية، لا يمين فيها أو يسار، أول أو آخر، أعلى أو أسفل، ما دخلها مفقود، يسير في كل اتجاه، هي خليط من فوضى العناصر الأولية التي تُكوِّن كل الأشياء (الماء والهواء والنار والأرض)، قبل أن تقوم العلة الأولى والمحرك الأول والخالق بفصلهم ليكون العالم وتنتهي الفوضى ويُعاد ترتيب الأشياء ويبدأ ميلاد الأرباب والخلق.. والفوضى شرٌ مطلق وفي الترتيب كل الخير أو في هذا ظنُّوا...

والكايس chaos في اللغات اللاتينية تستخدم لتوصيف الاضطرابات غير المُسَيطَر عليها. أما مؤخرا فتستخدم لتوصيف نظرية حديثة في الرياضيات والفيزياء تحاول دراسة الأنظمة التي تُبدي سلوكا عشوائيا وغير مُرتب، مثل حركة الموائع والتنبؤات الجوية والنظام الشمسي واقتصاد السوق.

(1)

كل كوابيسي، أحلامي، خيالاتي، تهويماتي، توقعاتي، تنبؤاتي، جنوني، حدسي، شطحاتي، معادلاتي، أرقامي، تبصراتي، نتائج بحثي، ما أوقن به، ما أرفضه، ما أكتمه، سراباتي، ما غشيني، ما كُشِف لي ستره، ما انتهكني، ما عرفته..
كل شيء صار حيًا يتحرك..
أسوأ كوابيسي التي رأيتها واستنتجتها بألمعيتي وخروجي عن المألوف العلمي باتت تتنفس، تعيش، تلهو، ترقص، حاضرةً كواقع لا يمكن عكسه، كزمانٍ لا يمكن السفر فيه للخلف، حتى وإن لم تؤمِّن الفيزياء بعد نظرية تثبت ذلك إلا أن التجربة تسلِّم به.
الانهيارات الأرضية تزحف، اصطدام عربات المترو، سقوط شبكة الكهرباء بالكامل، تصدعات الكباري، انطباق الأنفاق، أخبار عن شقوق بمبنى السد العالي، زحف البحر، الانفجارات التي صارت كزقزقة العصافير أمام كل نافذة وأعلى كل شجرة وتحت كل مقعد عام وعلى كابلات التليفونات وفي كل منور، القتل اليومي بلا ضغينة والنهب والسرقة بلا نية وإفلاس البورصة والبنوك المقفرة كقبور، البشر الساعون كموتى بلا روحٍ أو حياة؛ ينتظرون موتًا، قد يأتيهم عن يمينهم أو يسارهم بغتةً، أو بسكرات موجعة وصرخات مفزعة ملتاعة يغتالهم من أسفل أو يحوّم حولهم ثم يصرعهم ويخطفهم من أعلى.

الطعم اللاذع في كل الأفواه، الأنفاس ثقيلة، الخيال مذبوح، التفكير بلا طائل أو معنى، الشمس لاهبة والأرض محترقة والزروع جافة والقوارض تجري في كل مكان تتخبط وتلتهم ولا تتورع عن العض، الجراد أصاب الشمس بالعمى وقد منع شعاعها، يوشك أن يحط ثم يرتفع وقد بات اللون الأخضر ذكرى لا يعرفها إلا المسنون، الأرض جدباء متشققة...
حتى "جايا" ربة الأرض، كان لها نصيب فارتجفت والتهبت، بضربة قدم من مواطن محتقن لسطحها، تزلزلت، تعاقبت زلازلها حتى أوشك مجرى النيل الجاف أن تتصدع أرضه تماما وتنفصل لتنقسم مصر شرقية وغربية، المقطم استحال بركانا يقذف باللافا، الهواء ركد تماماً، جاثمٌ كحجر، خانق كمستنقع، من يتنفسه يتحشرج ويموت.
أسعى بينهم غير مبالٍ، لا تعنيني الجبال التي تهدد بالتصدع، الغبار يغمم الرؤية ويخنق ويتكثف على الجلد طبقات من طين، القمامة المختلطة بالرتش، بشظايا الطوب والأسمنت المسلح من العمائر المنهارة، الرائحة العطنة التي تعبئ كل شيء، لزوجة حلت على العالم مقززة وتثير الغثيان.

كإلهٍ ملّ العالم، أنظر إلى كل شيء في غير اعتناء وبترفع العارفين، أو لعله يأسهم، أبشر بالنهاية وأحتفظ بالبشرى لنفسي، أهون من أن أتحدث إليهم وأوهن من أن أخبرهم.
تحت كل كوبري منهار طفلٌ بلا بنطال، يلاعب الموت، يراقصه بعينٍ بريئة، رمدانة، ومخاط يسيل من أنفه..

العجائز والكهول يسندون ظهورهم الخائرة إلى حوائط تريد أن تنقض، ينتظرون نفخة رحيمة من إسرافيل، الشباب يتقاتلون على جرعة ماء أو قطعة لحم.
كانت آخر الأخبار التي طالعتها -قبل أن تختفي الصحف وتندر- خبرا عن خروج القمر الصناعي "النايل سات" عن مداره وانفجارات متتالية تطيح بأبراج البث في المقطم..
من الممكن جدا أن تستمر في مغازلة اللغة لتجزل لك في المعنى، تنداح شعرًا يعبر عن اللحظة يصف ما يحيطك من فوضى وفناء، لغة تملك أن تقلقل أحاسيسك وأحاسيس من تخاطبهم -إن فعلت يوما- لكنك لست ذلك الشاعر الرومانتيكي المخبول الذي قد يمسك بالورقة والقلم ويجلس منتشيًا على جانب العالم أو ربما على ظهر الثور الذي يحمل العالم بين قرنيه، ليسجل وقائع الفناء في دراما وجمال لن يدركه أو يعيه أحد..
ولا ذلك الفيلسوف الذي قد يشاهد كل شيء ويبتسم في ترفع معليا من شأن توقعاته، معارفه، منطقه الذي تنبأ بكل شيء، ولا حتى ذلك العالم الجبان البطل الذي قد يفكر في عكس كل شيء، يراود الفيزياء والرياضيات عن نفسيهما، يتوسل إليهما ويتقرب بالقرابين، يفشل في عكس دوران عقارب الساعة، لكنه لا يكف عن التجريب.
لا تملك دافعًا أو حافزًا واحدًا يجعلك تنهض من مكانك، تنظر إلى كل شيء بعيونٍ مجوفةٍ فارغة، تعيد تغذية برنامجك وحاسوبك بالأرقام الجديدة، تتطلع إلى النتائج فقط ثم تعيد الكرّة

من جديد، كسيزيف تدفع الصخرة لتسقط وتسقط لتعاود دفعها في رتابةٍ وبلا معنى أو منطق أو حكمة، غير أن عذابه كان في أبدية ما يفعل، أما أنت، فتفعله وكفى، بلا معنى أو رجاء أو جبر.

لا تملك مهارة أن تعاود الاحتيال على اللغة لتفجر مزيدا من طاقتها، تلهب الخيال وتجمح به، ترى آلهةً تتصارع في بر مصر، زيوس وحتحور وماعت يرمون بالصواعق من جهة، مارس وفينوس وتحوت وجلجامش يردون بالمولوتوف من الجانب الآخر، تآمروا جميعا على أهل بر مصر، عاقبوهم بالتحريق والتضييق واليأس والكوارث وسلطوهم على هلاك بعضهم..

تفسير الأمر لا يحتاج إلى عقل ساذج يقول بلعنةٍ معلقة في السماء، سقطت بقدر ولحكمة وبعدل. لعنة تصيب الجميع وبالتدريج، تنتشر فيهم كجائحة لا تترك ولا تذر جزاءً وفاقا. أمثالي يعرفون أن لا لعنات معلقة أو شياطين تحرك أيديكم وتمتلك ألسنتكم تتربص بكم وتنتقم...

العالم كله كمعادلة رياضياتية وأرقام وتراكمات، أحداثه مسكونة بطاقة الاحتمال ومنطقها وقانونها..

كهرمٍ رملي ينبني حبةً فوق أخرى، كلما سقطت عليه حبةً من أعلى أضافت له ورفعته، النسق يشمخ ويتشكل بقوانين رياضياتية وفيزيائية، قد تؤدي الحبة الساقطة من أعلى لتنضم للبناء إذا سقطت بزاوية معينة وبشكل معين إلى موجة رملية

تجتاح الهيكل، بسيطة أحيانا وعنيفة في أحيان أخرى، مدعومة بنفس القوانين، الموجة قد تتضاعف طاقتها، تزلزل البناء وتسقطه كله فيتسطح الهرم الرملي، ينهار كل النسق ويفنى. أمثالي لا يملكون غير الذكريات، بنفس الكسل الذي يعيشون به، يجترونها..

الفكرة تعيد إلى ذهني ذكرى أول قراءة لي في فلسفة العلوم وتاريخها، يوم كنت أنظر إلى العالم بكآبة الغريب عبر شباك حجرتي الضيق في سكني القريب من جامعة "ويست فيرجينيا"، كنت أختلس نظرات خارج الكتاب الذي بين يديّ وخارج الحجرة وربما خارج العالم، أحاول أن أعالج روحي بالشرود.

انتشيت جدا وشعرت وكأنني هزمت العالم وأنا أقرأ عن نيوتن، كيف رأى في الكواكب والنجوم والمذنبات حركة منتظمة، خاضعة لقوانين دقيقة، لكن القوانين تلك لم تكن تكفي لحفظ اتزان الكون.

كون نيوتن -وباعترافه الشخصي- معرضٌ في أي وقت للانهيار، كونه يحتاج من آن لآخر لدفعة من يد صانع الساعات- الإله- ليعيد النظام ويحفظ التوازن، الكون بحاجة لإله يحفظه.

ساعتها نويت أن أكتب عن ذلك الانتصار الإيماني، سأخبر به والديّ في خطابي القادم، كيف يُسَخِّر الله علماء الغرب الكفرة لخدمه دينه، سأكتب لحسين صديق عمري كذلك عن تلك المعجزة...

صُدمت وفَرِحت يوم عرفت أن نيوتن لم يكن كافرًا، وإن لم أفهم عبارة مفادها أن إيمانه يختلف عن إيمان العامة النصوصي..

كنت ساذجًا جدًا للدرجة التي جعلتني أقول لضابط أمن الدولة الذي اقتادوني إليه أنا وزميلي في معرض الكتاب لإقناعه بأنه لا يحق له الاشتباه فينا: "احنا طلبة جامعة محترمين ومتفوقين حضرتك"..
يومها اقترب منا أمين الشرطة بزيّه المدني وسألنا عن تحقيق الشخصية، كان يسلّي وقته ويتنزه مستمتعا بجو يناير الصحو، تزلزل غروره حين سأله حسين أن يطلعنا على ما يعرّف به شخصيته لنتعاون معه، انتفض وابتلع الإهانة.

- انتم مش شايفين اللاسلكي اللي ف ايدي؟ عموما الكارنيه أهه. اتفضلوا بقى معايا يا بهوات ..

سار بنا من أقصى أرض المعارض إلى أقصاها. لم أعتقد أبدا بوجود ذلك الركن الخفي الذي ربما مررت به مرات دون أن ألاحظه، دخلت إلى المبنى القصير والذي لا يحمل أية علامة مميزة حيث اقتادنا الأمين، رُوّعت ولم أفهم عندما وجدت من أوقفوه في مواجهة الحائط، ينظر إليه في إذلالٍ بيّن..

تشبثت بالضابط الذي قادنا الأمين إليه، فاجأته بعبارتي تلك فابتسم ولم يعقب. سألنا بعض الأسئلة ثم صرفنا بعد أن تأمل تحقيق الشخصية خاصتنا..

مررت بعد ذلك مرات على نفس المكان، كان كذلك بلا أية علامة مميزة..

كانت الطامة الكبرى والهزة التي هيجت الدم في عروقي أن أعرف أن هناك من سخر من إله نيوتن ومعادلاته، وصفوا ربه الذي يتدخل ليعدّل من حركة الكواكب ويحفظ النظام بدفعات رقيقة من يده، وصفوه بأنه صانع ساعات أعمى، عاجز أن يجعل من الكون عالمًا منتظمًا بلا تدخل منه..
الكفرة لا يخلب عقولهم شيء وقد ضرب الله عليها غشاوة، متى كانت الساعة منتظمة دون تدخل منه ادعوا عدم وجوده أو موته أو تخليه عن العالم، ومتى تدخل، ادعوا عجزه عن خلق نظام لا يحتاج إليه..

(2)

منذ مدة طويلة وأنا لا أختبر أية مشاعر، لا أفرح أو أحزن أو أغضب أو أيأس أو أتفاءل، أعيش بلا شغف أو إرادة، كقطعة خشب ملقاة تسير مع تيار الماء.
لا أعرف تحديدا متى صرت كذلك، انكشف لي كل شيء مع مرضي، فجأة وجدت قلبي لا يتحرك بزيادة في نبضه، يرتجف أو يرقص أو يندهش أو ينقم. فقط أتاح لي المرض وقفة للتفكير وخروج عن النمط لأدرك ما أصبحت عليه.
في الجامعة بويست فيرجينيا لاحظوا انخفاض وزني السريع، شحوبي، سرعة إصابتي بالإرهاق، نصحوني برؤية طبيب، أجبتهم باستخفاف ولا مبالاة، رضخت لإلحاحهم وتظاهرهم بالاهتمام بي، ربما قلقا على نفسي وعلى الأغلب رغبة في التخلص منهم وضوضائهم التي بلا داع، لم يستغرقهم الأمر طويلا في المستشفى ليدركوا إصابتي بالليمفوما، السرطان هناك يعمل بدأب وإخلاص ورتابة وربما مثلي بلا شغف.

من منا يملك منطقا لكل تصرفاته؟! كانت رأسي تشتعل من كثرة التفكير، مملوءة بالأهواء والأفكار الجافة تحسب، تضيف، تطرح، تقسم، تربّع، تكعّب، تجزّر..
سأستند إلى أي حائط، أموت في سكون، بلا ضجة، أعرف أنها النهاية ولا أبالي، لا أريد حتى أن أفكر كيف أمضيت الأيام،

هناك ومن كرسي خلف النافذة سأتأمل قرص الشمس وهو يشرق ويغيب، أترك نفسي لنسمات الهواء تداعب بشرتي العجوز وتهمس.
حتى الملل لا تملك أن تشكو منه، فقط محاط بالخواء.. اللارغبة.. اللاشيء..

منذ أعوامٍ عدة لم أسافر إلى القاهرة، إجازاتي أقضيها على شواطئ ميامي، أحيانا في أوروبا. في أول عام لي بأمريكا لم أتحمل، عدت مرتين، أنفقت الكثير، أضعت مدخراتي، اقترضت لأكسر هم الغربة وقسوتها، ثم انتظمت على زيارة سنوية لأهلي، لوسط البلد، الكورنيش، مصر القديمة، الحسين، السيدة، جامع عمرو، أحيانا إسكندرية أو رأس البر. الزيارات تتباعد، تنتهي كل مبرراتي للعودة، لا معنى لها أو منطق. بعد أول جلسة من الكيماوي حزمت حقائبي وسافرت إلى مصر..
أن تقصد مصر لتموت فيها، أواجه نفسي في قسوة، أرفض الخاطر، أعلم أن الموت هناك بداخلي أنهكني بالشيخوخة، الآن يرديني بآخر وأشرس جنوده السرطان.
لم أختبر الخوف أو الرغبة أو التشبث بالحياة، لم تدمع عيناي على الدنيا أو خوفا من الجحيم أو رغبة في الفردوس أو رعبا من المجهول ورفضا للفناء.
لم أكن كبشري طبيعي في مواجهة الموت، لم أحاول دفعه أو رفضه أو مقاتلته أو حتى الاستسلام له في صخب، لم أسلمه نفسي واهنًا، منكسرًا، منتهيًا، لم أقاتله كفارسٍ نبيل، لا أصاحبه

أو أعاديه، فقط لا أهتم لأمره كنائمٍ أو متظاهرٍ بالنوم في حضرة قاتلٍ بلا قلبٍ أو شرف.

لا أعرف لماذا عدت؟!، لست ذلك الرومانسي الحالم الذي يتوسل الدفن في أرض حوت عظام آبائه، أطلالهم، حكاياتهم، آثامهم، لست ذلك المفطور فؤاده، الراغب في اجترار ذكريات شبابه، يفتش عن طرق قديمة سلكها، يبكي مدنا سكنها، يجلس في حديقة تلهى بها يوما، يحدث نفسه بأشباح أحداث وأحلام قديمة، يغيب فيها آخر أيامه، لست ذلك الساذج الذي يستشفي بمياه النيل المباركة النابعة من الجنة، لست ذلك الدرويش الذي يريد أن يمكث آخر أيامه في مسقط رأسه حيث الطهر والخير وأبواب مفتوحة على السماء وملائكة ودعاء ..

اشتريت التذكرة ودون مشورة ودون أن أخبر أحدًا، ابنايَ سينقمان ويغضبان قليلا ثم لن تلبث أن تجرفهما الحياة، ميري المسكينة أخشاها، أخشى ألمها وردة فعلها، قلقٌ جدا عليها، الباقون لن يضنيهم كثيرا لو عرفوا بسفري أو حتى موتي.

في التاكسي الذي يحملني إلى شقتي المؤجرة مفروش بزهراء المعادي استرجعت مشهد قطرات الكيماوي وهي تتدافع نحو جهاز الوريد ومنه إلى عروقي ودمي وخلايا الورم، الممرضة الطفلة البلهاء وهي تدور حولنا في ارتباك، تتشاغل بأي شيء وكل شيء، تحاول ألا تقف ساكنة، تعبث في غير معنى بالمحلول المعلق والكانيولا وذراعي، الطبيب الشاب مساعد

أستاذ الأورام وهو يقف معقود الذراعين أمام صدره، أستاذ الأورام وهو يقلب في نتائج التحاليل وصور الأشعة والفحوص قبل أن يلتفت إليّ بوجه مستبشر، عينين تلمعان من تحت النظارة، فم تعلوه ابتسامة سعيدة.

- إحنا هايلين جدا.. الأورام بتصغر وبتستجيب للعلاج..
- كويس..

أعلم تمام العلم مدى الإحباط الذي أصابه أمام لا مبالاتي، تلقيت الخبر كأنه لا يعنيني، لا يهمّني، الكل يساوي اللاشيء، الشفاء لا يفرق كثيرًا عن الموت.

الطبيب حاول أن يستبقي الابتسامة والنبرة الفرحة، كان كممثلٍ بارعٍ أجاد في أداء المشهد ولم يجد تصفيقًا في الصالة أو ردة فعل بتمثيلٍ مكافئٍ من زميله الممثل على الخشبة، أداء زميله باهت ينال من اجتهاده.

هاتفي المحمول يرن، أكتم الصوت، يعاود الرنين، أكتم الصوت لمرة أخرى، أمام إلحاح الرنات أكتم الصوت نهائيا من إعدادات الجهاز..

مشوّش التفكير، لا أهتم بمراقبة الطريق، متابعة العربات، الجمهور وفوضاه، ردود أفعاله، تسجيل التلوث، التراب، الحرارة، الضيق، فضفضة السائق.. لا أشعر بالوقت أو الزحام.

بين الحين والآخر ألقي نظرة لا مبالية على الهاتف المحمول، لا أرد أيضا، شاشته تحمل اسم مصطفى ابني وصورته، لا

يكف عن محاولات الوصول إليّ، يعلم أنني اليوم سأعرف بنتائج الفحوص والعلاج.. أحتاج لبعض الهدوء والوحدة، من جديد سيهاجمان قرار سفري ولن أجد مبررا واحدا منطقيا بالنسبة لهما، سيضيق العالم عليّ، يتضاعف الاختناق الذي أشعر به وأنا أرى أيامي قد باتت معدودة، بدلا من أن نقضيها معا، نستجدي ساعات من القرب تضن بها الحياة، فقط نتحسر على بُعدٍ فرضته الحياة وعنتها، لا نقتنص آخر الفرص، أنا مشغولٌ بجنوني وبما لا أفهم، وهما مشغولان بأعمالهما وارتباطاتهما في أمريكا، غرستهما هناك، الآن وبكل حماقة أبغي انتزاعهما ليصطحباني في خضم جنوني الأخير، أحدهما باحث في الفيزياء النظرية في جامعة بنسلفانيا، والآخر محامٍ وسياسي يعيش في واشنطن.
في أمريكا فور علمهما بمرضي، قطع كل منهما أعماله، بدَوا قلقين، يسألان الأطباء في اهتمام، يصطحباني في كل فحص، يكثران من التربيت عليّ والاهتمام، في أعينهما دموعٌ محبوسة. كانت جلسات الكيماوي قد بدأت، اليوم الذي سار فيه الدواء في جسدي لأول مرة عدت إلى المنزل محبطًا وموجوعًا، أنفاسي تشقيني وأميل للنعاس، في ذات اليوم تركني أحدهما، بعدها بيومين غادرني الآخر، ودعاني بقبلاتٍ حارةٍ وأحضانٍ دافئة غير ذات معنى، ذهبا وهما يقسمان أنهما سيعودان بعد يوم أو اثنين على الأكثر، فقط سيهتمان ببعض الشؤون المعلقة ويتفرغان لي، سيتبادلان على الإقامة معي، يتمنيان أن يمكثا الاثنان معًا ولكنها الحياة اللعينة وشواغلها.

أستيقظ من النوم، أفرك عيني في قوة، أحاول رفع غشاوة النعاس، التركيز فيما أنظر إليه وما يحيطني، نمت بملابسي كاملة، هاتفي نفذ شحنه، ملابسي مبتلة بعرقي، أفك الأزرار، أتنفس بعمق.
أغتسل جيدا لأخفف من سخونة العالم، أشغل التكيف، من الثلاجة أتناول علبة عصير.

يوسف صرخ في الهاتف وفيّ كأنني أحد معارضيه أو خصومه في قضية، يعنفني، يغطي على عجزه في القدوم إليّ بلومي وبلوم قراري بالسفر، كان غاضبا كبركان، صرخت فيه كذلك، كدت أغلق الخط في وجهه أو أرمي الهاتف من يدي، أمام ثورتي رضخ، وإن لم يسلّم تماما، حاول أن يلومني في رفق، أن يقنعني بالعودة..
إن لم تعجبني المستشفى التي أتلقى بها العلاج فهو سيستضيفني عنده في واشنطن، سيسهر عليّ، فقط أطيعه وأعود، أقطن واشنطن معه، أكون تحت عينيه...

لم أجبه، تركته يهذي حتى النهاية، عندما أموت سيكون مرتاح الضمير، عرض كل شيء وأنا الذي رفضت.. جاءني وأخيه بعد أسبوع من سفري لمصر، ألحا على العودة بي، كان عليهما أن يحاولا أكثر، كان عليهما أن يمكثا إلى جواري...
أحاول أن استعيد كلمات أستاذ الأورام لي، بشارته، إقناع فمي بالابتسام وقلبي بالرفرفة وروحي بالخفة، أنا على الأرجح سأشفى، أكرر الكلمات بيني وبين نفسي قبل أن أصرخ بها،

أرسم ابتسامة واسعة مصطنعة، رغماً عني تستحيل قهقهة عالية، ضحك هستيري وضربة نشوانة من مخمور لم يمس الخمر للمنضدة أمامي، أنهض منتفضًا، أفرد ذراعي للعالم في حركة مسرحية فجة قبل أن أنحط جالسًا وبلا حركة..
يوسّعون من دور الإرادة في العلاج، ثقافة شعبية من الدجل والأوهام، طب كعاهرة ينقاد لهم ويسلّم بلا أدني مقاومة أو محاولة للاستقصاء. ينصحونك أن تتحامل على الحمى، العرق، الوهن، تكسير العظام، ضيق النفس، الغثيان، خض معركتك وانتصر، كشر لمرضك عن أنيابك وافتك به، اهزمه بإرادتك ورغبتك وشغفك، سيستسلم لك ويغادر أرضك بلا رجعة، مهزومًا، مدحورًا، منكس الرأس، خائرًا وضعيفا.
لا تعنيني المعركة في شيء ولست مهتما بالشفاء، حياتي فاترة، أريدها أو لا أريدها صنوان عندي. لا أكاد أصل الهاتف بالشاحن حتى عاود الجنون، رنين واهتزاز.

- الحمد لله.. أنا كويس يا مصطفى.. أيوه الدكتور بيقول إني باتحسن.. مبسوط يا مصطفى ... ما تقلقش.. لأ .. ماتجيش.. أنت وراك شغلك وحالك وأبحاثك وأخوك عنده قضاياه ومشاريعه.. ربنا يبارك فيك يا حبيبي.. باي باي دارلينج ...

حياتي مخادعة تماما، مملوءة بالأشخاص، الأحداث، الأفعال لكنها خالية من كل معنى، فقط مع مرضي بت واعيا بي، أراقبني عن كثب..

وأنا أغادر القاهرة وأنا أختلط بالعامة في المقاهي أو أتسلى بمشاهدة فيلم تجاري أو هابط في السينما، وأنا أجرب ركوب التوك توك وأنا أثرثر مع سائق تاكسي، وأنا أنفعل في الحوار مع حسين، وأنا أتابع نشرات الأخبار، وأنا أسجل في دفتري أو أغذي الكومبيوتر بالبيانات وأتركه لحسابات معقدة طويلة تستغرق ساعات وأيام رغم أنه أحدث كومبيوتر بأقوى معالج للبيانات، متصل (بسرفر) ضخم، وأنا أدندن مع الست، وأنا أتحدث إلى ولديّ وأنا أدرس أو أختبر أبحاثي، وأنا أحادث ميري على الشات، وأنا أفعل كل شيء، لا أتحرك برغبة أو دافع أو هدف لكنني مستمر في الحركة، لا أعرف أن أتوقف لأقيّم ما أفعل أو أعترض عليه، أحرق أيامي وعمري وأتطلع إلى الدخان في أسى. أرى في نفسي آلة شديدة التعقيد ببرنامج شديد الحساسية والتطور، لكنها في النهاية آلة وبرنامج تستطيع أن تمنطق الأشياء وأن تتصرف بكل ذكاء وعبقرية وفق نموذجها لكنها لا تملك أن تحلل برنامج تشغيلها، تحكم على العالم كله من خلاله وتراه عبره، لكنها لا تستطيع أن تقيّمه، أن تكشفه وعيوبه، أن تغير فيه وتراجع...

فوضى.. ضوضاء.. اختناق.. ضيق.. غثيان.. صداع.. أتربة.. معاناة، لا أدري أمعذب أنا بوعيي الجديد، أم بعلاجهم وعقاقيرهم وكيماويهم الذي يقتلني في بطء..

(3)

هو عملي الأجلُّ والأبرع، قُبلتي التي أمنحها للعالم قبل أن أفارقه، أفجِّرها فيه، في نظمه وغروره وأفجره بها. عملٌ أصليٌّ وبارعٌ، سأموت وهو بين جنبيّ، لا يعلم به أحد ولن يعلم، ربما لو امتلكوا بعض الفطنة وبحثوا في حاسوبي بجدٍ لوجدوه، لكنهم أهون من ذلك، حاسوبي سيباع خردة، على أحسن تقدير سيباع لمهندس يمسح ذاكرته قبل أن يقبِّح وجهه ببرنامج تشغيل عقيم ومتداول وألعاب وميديا سوقية ويعيد بيعه..
لا يعنيني كثيرًا أن يعرفوا بإضافتي الأهم أو لا يعلموا..
يعرفون ما انكشف لي أو لا يعلمون، يضيفون اجتهادي إلى تراكمهم العلمي أو لا يضيفونه، أُتم عملي وكفى بلا رغبة في شيء، بلا سبب منطقي وحيد يدفعني لإتمامه، في رتابة لا تضاهيها إلا رتابة الحياة والموت نفسهما.

كل شيء أحوِّله إلى متغيراتٍ من أرقام، معاملاتكم، حوادث الطرق، أسعار العملات، أسهم البورصة، الكوارث الطبيعية والبشرية، مشاجراتكم، أخباركم السياسية، مانشيتات الجرائد، التضخم، الرضا، أعمالكم الفنية، الذوق العام، الأغاني، ألوانكم المفضلة، شحناءكم، عطفكم على الفقراء، الضيق، الألم، السعادة، الرجاء، اليأس، كل شيء أحوّله لأرقام وأعوّض بها في برنامج من ابتكاري، يحسب متغيرات لا نهائية، عملٌ ضخمٌ، يستهلك أزمانا لابتكار مثله، لكنني أنجزته سريعا،

كحلاوة روح، نفخة حياة في جسدٍ هامد أو مراوغة أخيرة للموت. كان من الممكن أن يكون أضخم وأدق، بمتغيرات أكثر وطريقة أدق لاحتساب الأرقام وتقدير تراكمها، في الإمكان دوما أبدع مما كان وأعظم...

منطقتي الهادئة اجتاحتها الضوضاء فجأة، صرخات، أصوات عالية، سرينات متقطعة، هرج، مرج، أستيقظ.. حلقي عامود نار، ظهري يؤلمني، ركبتاي تئنان، شدٌ عضليٌ بمؤخرة عنقي، أنهض من الفراش، أجرجر قدميّ، أجرع الماء، أخرج إلى النافذة بعقل مشوش، عينين نصف مغلقتين..
الدخان في آخر الشارع يتصاعد أسودَ قاتماً، لا أرى لهبا لكنني أستشعر فداحته، عربة مطافئ تنهب الطريق نحو الدخان مطلقةً سرينتها في محاولةٍ لإعلان الوجود والسيطرة على الأمر قبل الوصول، عربتا إسعاف أراهما على البعد وقد اصطفتا إلى جوار الرصيف، أمد عنقي لأشهد جانبًا من الزحام والضوضاء...
أعد لنفسي فنجان القهوة الصباحي، أؤجل إفطاري لحين عودتي، لا أنسى التعطر، أرشف القهوة في تؤدة ومحاولة للاستمتاع، أراقب نفسي كجاسوس، أترصد حركاتي، أدرسها كضابط استخبارات، أواجه خطاياي كأب غاضب أو معلم عصبي..

أغادر شقتي في بطء، أسير متمهلا كأنني أتنزه، أقترب من الحريق والزحام، أفتح أذنيّ لكل عبارة أو إشارة، عيناي تراقبان، مخي دفتر تسجيل، أحيانا يهدني الإحباط والفكر، وماذا بعد؟!...
كانت العبارات متناثرة، الحريق امتد من الشقة التي في العاشر إلى دورين يعلونها وآخر أسفلها، ألسنة اللهب لا تجد ما يردعها، تتراقص في فتوة وبجبروت. رجل المطافئ وجه خرطومه نحو الحريق فجاء الماء مندفعا بشكلٍ باهت، غير قادر على الوصول للأدوار العليا، سرسوب واهن، مثير للسخرية والرثاء والإحباط.. لدقائق بقى المشهدَ ثابتًا، نارٌ تستفحل وتستعرض ومطافئ أسقط في يدها وزوبعة كلام وحركة وأزيز، بلا عبارة واحدة أقدر على تمييزها، أتراجع نحو الإسعاف، على محفة جلس رجل ثلاثيني بذراعين مفرودين خلفه، يستند بهما إلى جانبي المحفة ويستجدي شهقات وزفرات صعبة، عطش إلى الهواء، يشير إلى من حوله في رجاء وتوسل، يسألهم المعونة.
أحد سكان المنطقة، بدا كطبيب، هرع إلى المسعف ثم قفز إلى داخل السيارة، خرج تائها، مشتت الأنظار، كباحث عن حلٍ لا يجيء، أسطوانات الأكسجين بالعربة فارغة، و لا جلسات بخار متوفرة..
من بعيد جاءت العربة هادرة، مسرعة، فتية، شامخة، عربة مطافئ بموتور قوي لدفع الماء وسلم طويل يصل للأدوار المنكوبة.

السلم دار وانفرد، اعتلاه رجل المطافئ ممسكا بالخرطوم، قبل أن يعطل الموتور ويتوقف السلم، عاد خائبا، منكّس الرأس، التفوا حول العربة، يحاولون إصلاحها، يبحثون عن سبب العطل، السكان من حولهم يتطلعون إليهم في يأس، يحاولون كبح جماح أنفسهم، يستعجلونهم، يثبتونهم، يلومونهم ويصبرون عليهم.
الموتور عاد للدوران، السلم للارتفاع، الماء هادر، يدخل من النوافذ، يضايق ألسنة اللهب، يضَيِّق عليها.
الماء عاد ليصبح سرسوبا ضعيفا بلا فاعلية، العربة جاءت شبه فارغة من الماء. خراطيمهم لأسبابٍ مجهولة لا تركب على حنفية الإطفاء الموجودة في الشارع، قيل بأنه قد تمت صيانتها قريبا..
أن تقف على حافة الجنون، تراقب كل شيء كإلهٍ عارف، لا يفعل شيئًا، ترى الشمس وهي تحترق، توشك أن تنكمش على نفسها وتومض الوميض الأخير قبل أن تتقزم وتموت، الأرض وهي تغادر مدارها، ترتمي في الفضاء والمجهول، بلايين بلايين الأشياء تبزغ وتفنى.
حتى وإن كنت شاحبا كشبح، بلا إحساس كميت، باردًا كلوح ثلج، جامدًا كحجر، أتنفس وأتكلم وربما أشكو الألم والضيق ولا أحيا، أستسلم لملائكة الموت وشياطينه لتلقي بي في العدم واللاشيء...

حتى وإن كنت كل ذلك، إلا أنني وأنا أقف على حافة الجنون أنتشي، أستسلم للراحة كمدمن هيروين سد فتحة من فتحات أنفه وبالأخرى سحب البودرة السحرية ثم أغلق عينيه للحلم والسعادة...

تدرك أنك وأنت على حافة الجنون قد ترى كل المعجزات، لهبًا يقفز من شرفة لأخرى كلاعب سيرك، سيارة إطفاء تشتعل، عربة إسعاف ملفوفة بالشاش، تسعل دخانا أسودَ، رجال مطافئ يطيرون، يبارزون إله النار بالسيوف والمعاصي قبل أن يخروا له ساجدين، مستسلمين..

ليس الأمر بحاجة إلى معجزة أو خرق لناموس الكون، فقط دع التفاصيل الصغيرة تتراكم ثم أدر المشهد سريعا لترى كل شيءٍ محتملاً ممكنًا...

كماءٍ يسري هادئًا وفق قانون، ارمِ في سبيله صخرة، المحْ تكسُّر المياه عليها، افتراقها العادي ثم تجمعها، تشتتها والتئام هيكلها، زد من سرعة الماء، راقب الدوامة التي تتشكل ساحرة، وحيدة، رزينة، تملك أن تحسب سرعتها وتطورها، زد من سرعة الماء، ألْقِ بصخور أخرى في المجرى، الماء يسري مجنونًا، هائجًا، مئات الدوامات تبزغ وتفنى وتدور بلا منطقٍ أو سببٍ أو قانونٍ واضح ..

ساعتها قد تقول بصراع بين كائنات لا مرئية، جان وعفاريت وممالك غير مرصودة تتقاتل أو ربما تلهو، لا ترى غير أثرها، أو تقول بلعنةٍ أبديةٍ حلت وجاء وقتها، أو حوريات الماء يتصيدن عريسًا بشريًا، أو يشطح خيالك فتقول بمجموعة لا نهائية من الصدف لا يمكن لعقل منطقي أن يصدقها..

فقط دع الأحداث الصغيرة تتراكم، نفس القوانين العادية لتعمل؛ لتشهد المعجزة واللعنة وتراكم الصدف، النار التي تلهو منفردة، مدمرة لساعات، عربات الإسعاف بلا أكسجين، عربات المطافئ بلا ماء أو سلم، حنفيات لا تركب عليها الخراطيم، نهار واحد اندلع فيه ما يزيد عن ألف حريق، انخساف الأرض، اضمحلال الكون، موات أو انبثاق حيوات..
رجل مطافئ تمسك فيه النيران، يجري هربا من نيران تلهب جسده فينقلها من عمارة لأخرى، يدفعونه في قسوة عنهم وعن ممتلكاتكهم، يخشون اشتعالها، انتقال النار منه إليها، طبيب مصاب بضيق في النفس واختناق..

حسين صديقي الوحيد الذي بقى لي في مصر، انقطعت كل صلاتي تدريجيا به دون أن أشعر، انسلخت بلا ألم أو إدراك حتى وجدتني كنبتة واهنة بلا جذر أو ثبات، تشقيني الرياح وتعبث بي، الغريب أني لم ألحظ ذلك إلا مؤخرا، ذاب الخيط الذي يربطنا حتى أعاد حسين لضمه قريبا. كنا جارين من نفس العمر، التحقنا بنفس المدرسة الابتدائية وحتى الثانوية، قبل أن يفترق طريقانا في الجامعة. ما يربطنا كان أقوى من الدم، أفتح عينيّ لأبحث عنه ويبحث عني، اقتسمنا المصروف، الأهواء، الأحلام، يتشاجر لي في معاركي وأتشاجر له، يمرر لي الكرات في ماتشات الكرة بالحارة، سري سره وسره سري، نتنفس نفس الهواء، نمشي نفس الخطوات، حتى أول بنت أعجبتني ولم أحدثها وظللت أياما أراقبها من بعيد كنت أحكي له عنها ونتبادل النصائح.

أردنا معا أن ندرس الهندسة لكنني فشلت في مسعاي ونجح حسين، مكتب التنسيق فرّق بيننا.
يوم كانت النتيجة اتصل بي حسين ليبارك لي على كلية العلوم، رفضت أن أكلمه قبل أن تورطني أمي في الرد عليه، نادت عليّ، هززت أكتافي أني لا أريد الحديث، قطبت جبينها "يا ابني عيب".. مدت لي يدها بالسماعة، أُسقِط في يدي، أتناولها منها في ضيق، أضغط على نفسي وأعصابي، أكظم مشاعري، أوشك أن أختنق، الأرض تميد بي، قلبي غير مستقر، أشعر بالحمق والمهانة، ما الذي يدفعه للاتصال بي إلا الشماتة والتعريض؟، أتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعني، لو أخنقه بيدي، غصة الحلق تمنعني الحديث، أكاد أغلق الخط في وجهه وأهوي بالسماعة في قوة على جسم التليفون، يدّعي أنه يبارك لي ونبرة صوته فرحة، مؤلمة، جارحة كسكاكين حادة وحارة، اللعين يحاول إذلالي.
أتجنب ملاقاته في الشارع ولو صدفة، أراقب نزوله وصعوده، عامٌ كاملٌ أدّعي النوم مرة والغياب أخرى، لن أسمح له أن يفرض عليّ تفوقه، ينال مني ألف مرة بينما أنسحق أنا، أنهزم، أنصرع، أسقط فاشلًا..

لم أقدر على مخاطبته والبحث عن لقاء يجمعني به إلا بعد أن ظهرت نتيجة عامي الأول في كلية العلوم، كنت الأول على دفعتي، يومها بحثْتُ عنه في كل مكان، وقفت تحت شرفته وناديت، سألت عنه أباه وأمه والجيران، فتشت عنه في كل مكان، أهاتفه فلا يجيب، ردت أمه، لم أفهم منها شيئا، هل

موجود أم ذهب؟، كان صوتها مهزوزًا، ملتاعًا، قلقًا، كلماتها غير واضحة أو مفهومة. أراقب شرفة منزله ونافذته وبوابة العمارة التي يقطنها ليومين كاملين، أنتظر ظهوره كي أهرع نحوه وأتحدث إليه، لا أنام ولا يصيبني الملل، ما إن لمحت ظله حتى هرعت على السلم، أقفز درجاته، أجري لألحق به، استوقفته، أنفاسي متسارعة تقطع عليّ عباراتي.

- يا حسين .. أنا نجحت يا حسين .. أنا الأول على دفعتي..

حسين لم يلتفت إليّ، نزع نفسه من محاولتي لوضع يدي على كتفه، أكمل مسيره، أمد خطوتي، أسبقه، أعترض سبيله لأستبقيه.

- حسين رايح فين؟! ... مالك؟ مابتردش ليه؟!.. خلاص ما تزعلش إن كنت ماكلمتكش اليومين اللي فاتوا دول.

ألمح الضيق في عينيه، عيناه لا تنظران نحوي، تبحثان عن أي شيء تتعلقان به وتنشغلان عني، دموعه توشك على التكثف لتسقط زخات ثقيلة، يضغط قبضته في توتر.

- خلي قلبك طيب بقى يا حسين وما تزعلش مني.. يا أخي سامحني..

لم أكن أعلم أنه متعثرٌ في دراسته، انتقل إلى عامه الثاني في كلية الهندسة بتقدير مقبول ومحمل بمادتين رسب فيهما من عامه الأول. أحتضنه في قوة، أَنهار باكيا على كتفه، أضمه أكثر، انفجر هو كذلك في البكاء، ينازع كغريق محروم من

الهواء، يرتعد كقط خائف، كل منا يسند ضعفه إلى ضعف الآخر، نتحامل على بعضنا لنبقى واقفين.
أصبحت معيدًا في الجامعة بقسم الرياضيات بكلية العلوم، بينما أصبح حسين مهندس ميكانيكا في شركة ما للمحركات بالقطاع العام..

اليوم أملك رفاهية أن أقف، أرقب الطريق الذي مررت به، كيف تحركت كذرة غاز في كل اتجاه، اصطدمت بكل شيء، بذرات مثلها، بجدار الوعاء، بالأرض والنباتات والجوامد والأحياء، بدأت في نقطة ودون أن تعي صارت في نقطة أخرى، بعيدة كل البعد، بعد أن جربت آلاف المسارات المختلفة.

يوم خطوت أولى خطواتي في أمريكا كان صدري مثقلاً بالقلق، عيناي مفتوحتان على اتساعهما، قلبي مستعدٌ للانبهار، ما أجمل البدايات، أطلق تنهيدة حارة، حينها لقيت نفسي تائها في عوالم لا حصر لها، لا أول أو آخر، كفراشة في حديقة مترامية وأضواء متباعدة وأزهار ورحيق وبراعم كثيرة.

غادرت المطار والمدينة لأجد الطريق ممتدًا بلا نهاية، ينهبه الأتوبيس ويستقر في نفسي أنني لن أبلغ آخره أبدا، الفضاء فسيح، الجبال تتبدى من بعيد، لسعة برودة منعشة في الأفق، أنكمش في نفسي، أتطلع فيما حولي برهبة وقلبٍ راجف، أشعر

بالفراغ الممتد يضيق عليّ، الجبال توشك أن تسقط فتسحقني أو تنضم فتهلكني...

حين سافرت لم أكن أنتوي الإقامة طويلًا، فقط أمكث أعوام المنحة لأحصل على الدكتوراه في الرياضيات، أجبر سادة العالم العلمي وسدنته على الاعتراف بي، تملق أعمالي، مناقشة اسمي، ربما أحاول مد إعارتي، أوسع من دوائري، زيادة ما يمكنني الإلمام به من خبرات، مصاحبة أساطين الرياضيات، ربما أجرب العمل في مشاريع تخدم السوق، أفتش عن معضلات تكشف نبوغي وأتألق بها، لكنني لا بد أن أعود يوما وذلك اليوم لن يكون ببعيد..
لم أتوقع أن تسنح لي الفرصة بتلك السرعة وبذلك العنفوان، فرصة لا يمكن تفويتها أو التعويض عنها، مشروعٌ بحثيٌ تدعمه الحكومة، تخوضه جامعتي "ويست فيرجينيا" وبعرضٍ من أحد أساتذتي المشرفين على بحث الدكتوراه خاصتي..
جامعة القاهرة أرسلت لي الإنذار تلو الآخر، اعتبروني منقطعا عن العمل، إن لم أقطع رحلتي وأرجع هددوني بالرَّفْتِ.

عانيت الغربة لأعوامٍ كثيرةٍ قبل أن يتغير كل شيء، كانت روابطي تنقطع تدريجيا دون أن أدرك، ساعة تفقد صلتك برحم أرضك الأم لا تتحرر، فقط تنحبس في الماضي وتجتر الذكريات، لا أكثر، تبكي الأطلال أو تتحامل وتغرق نفسك في العمل لتتلهى به وتحاول أن تنسى، تعيش الغربة هناك في أمريكا وهنا في مصر، تعتاد الحياة وإيقاعها، تظن أنك نسيت،

لكنك في لحظات ربما لا تتكرر كثيرا تجالس فيها نفسك بعيدا عن عناء العمل وصخب الأطفال يجتاحك ألم الفراق والحنين لمن مات ومن أفقدتك الأيام، تسارع بالنهوض، غسل رأسك، البحث عن فكرة جديدة ترهقك حد الإعياء، بحث أو موسيقى أو فيلم...
لعشرة أعوام انتظمت على الرجوع لمصر، كانت جوارحي تتساقط الواحد تلو الآخر، تذبل وتموت، في البداية فقدت أبي، انتهى أمري بدفن أمي، آخر زيارة لي إلى القاهرة هرعت من المطار إلى شقة أختي وزوجها، جلسة السمر التي جمعتني بهما على الغذاء ساد أكثرها الصمت، صمتٌ خانقٌ، مؤلمٌ، فاترٌ، باتر. حاولت قطعه مرارًا، لا يلبث الصمت أن يحل من جديد، ثقيل الظل، سخيفاً، موجعاً، لحظات الحوار النادرة مخاضها عسير، تخرج مشوهة، مبتورة، بلا معنى أو طائل، حوارات تموت قبل أن تشهق أولى أنفاسها، لا تعبر حتى الآذان، ربما لا تلتقطها بالأساس، كل ما قدرنا على التحاور به مجرد سلامات وتحيات وأخبار بلا حرارة، دعوات وتمنيات وتكهنات ولا شيء.

رأيته في عينيها ولمحته في عينيّ، احتضنتها في قوة وبدموع تحاول أن تغالبني، احتضنتني بعيون منداة، وعدتها في مرارة بلقاء قريب، هزت رأسها في توسل..
حينها أدركت أن مصر لن تعوض عليّ بعد الآن.

دومًا أعاني الدوار، الأرض تميد بي، تتراقص، ترتج كأرجوحة تغير من محور اهتزازها كل حين لتفاجئ الصغير الذي يعتليها.
صداعٌ شبه دائم يستوطن مؤخرة رأسي، ألم برقبتي من الخلف، ثقل بجفنيّ، خفة بباقي رأسي، كأنما تطفو على وساداتٍ هوائيةٍ.

أجلس إلى حاسوبي بالساعات، ظهري مصلوب، عيناي ملتهبتان، الوخزات بكل جسمي، أحاول أن أقرأ العالم، أستقرئ مستقبلي، أحمل البشارة أو أكتمها كنبي مقطوع اللسان أو رسول نغزه الشيطان فكفر.
ساعات طويلة أُقلّب في الأخبار، أحللها، أعالج كل سطر، أخرج بأرقام كثيرة، متغيرات توشك أن تكون لا نهائية، أعوّض بها في برنامجي، أتركها لتلد أرقامًا أخرى، أحداثًا أخرى.

حساباتٌ معقدةٌ ورسومٌ بيانيةٌ ومحاورٌ طوليةٌ وأخرى مستعرضةٌ ومنحنياتٌ وخطوطٌ.
أطبعها، أتأملها، أفرها، أعيد تحليلها لأخرج بالنتائج، بما سيكون عليه الغد..
اليوم اندلع ما يزيد عن الألف حريق، في المعادي فتاة ريفية في الثامنة عشر تعمل خادمة أنهت حياتها بعود ثقاب بعد أن استحمت وملابسها بالكيروسين..

أشعلت النيران في جسدها ثم حاولت أن تهرب منها بالجري والقفز والاصطدام بالأمتعة والملابس والمفروشات، نشرت النيران في كل مكان قبل أن تخمد حركتها..
الفتاة استحالت رمادًا وخبت، انطفأت بعد أن توهجت لدقائق..
عامل تعمد أن يشعل نفسه في مصنع للغزل، هرّب الكيروسين وأعواد الثقاب، بلا مقدمات ووسط زملائه أشعل النار في جسده، ربما هربًا من حمل أبنائه، ربما غضبًا من ظلم السماء، تمردًا، جنونًا، ضيقًا، إحباطًا واكتئابًا، ترك خمسة أبناء وبنات وأمهم، تسبب في اشتعال مصنع غزل بأكمله، طفايات الحريق منتهية الصلاحية، آخر مناورة تدريبية لفريق الدفاع المدني كانت منذ عامين، عربات المطافئ جاءت قليلة وقد تشتتت في كل مكان، جاءت مرهقة، مغطاة بالرماد، فارغة من المياه، جاءت لتشهد المحرقة، تقطر ما بقى من ماء في خزاناتها قطرة فقطرة، دموع بلا حول.
العشرات أحرقوا أنفسهم لا يعرفون بعضهم، لم يتفقوا، لم يتحدثوا، لم تجمعهم نقابة أو يضمهم حتى سمر فارغ، بدا الأمر كأنه غير مخطط له، فكرة نبتت كعملاق في ثوانٍ معدودات، حرائقٌ طاغيةٌ في كل مكان.

فلاح حرق نفسه وسط حقل يعمل فيه أجيرًا، بائع خضراوات وسط حي شعبي، أمٌّ بعد أن حممت طفليها واستحمت وقفت في وسط الحارة، حكت عود الثقاب، مدير بنك ووكيل وزارة وعامل بالسكة الحديد وسجين وسجان ومفتش تموين وسائق ونجار وحداد وموظف..

أحدهم أطلق في حقل قطاً مربوطًا إلى ذيله شريط من قماش أحرق طرفه، القط حاول الهرب من الحرارة واللهب، جرى وسط أعواد القمح الجافة الذهبية، جرى بعرض فدانين، تكفلت الريح -ربما- بالخمسة الباقين.
تكرر حرق الحقول، مرات بقط وأخرى بكلب وأحيانا بفئران، كأنه لهيب انتقام أو ثورة أو غل أو عبث أو يأس..
الماس الكهربائي أتى على مبنى البرلمان، مشعلو الحرائق في كل مكان، التلفاز يحذر، المستمعون منهكون، ضعفاء، فزعون..

في الصباح كان كل شيء هادئًا، لم تتبقَ إلا أدخنةٌ بسيطةٌ، رمادٌ، بكاءٌ، نهنهات، نواحٌ، ثلاثة أيام حداد في التلفاز الرسمي للدولة، خوف في العيون، ترقب، قوات أمن تحاول أن تداري توترها في ملابس أنيقة جديدة وإشارات صارمة وانتشار في كل مكان، إبداء بعض الوجوم والحماس والقوة.

أجلس إلى الكرسي القريب من حسين وصحبته، جلستي تأتي إلى جوار الحائط في مؤخرة المقهى، جلسة تسمح لي بكشف كل المقهى.
حسين مدمن على مجالسة رفاقه في هذا المقهى البلدي المتواضع، كانوا ثلاثة من جيرانه قدمهم لي وقدمني لهم، طلب لي كوبا من الشاي وكذلك له. قبل أن تصل أكواب الشاي كانت الطاولة منصوبة، الزهر يتقافز، القواشيط تتحرك. أقلب نظري فيهم وفي المقهى. كان يحمل نفس هيئة المقاهي قبل أن أغادر

مصر، كأن الزمن لم يمسه ويسحقه، لم يقلد الكافيهات، ينجد الكراسي أو على الأقل يستبدلها بتلك البلاستيكية المريحة عريضة الظهر والذراعات.
لم يحضر شاشات العرض الضخمة، يتلاعب بالإضاءة، أشكالها، ألوانها، الأباجورات أو يدير تلك الموسيقى الصاخبة أو يأتي بمشروبات مستحدثة، اكتفى بكراسيه الخشبية ضيقة الظهر والقاعدة، كراسي الفراشات القديمة والطقاطيق المعدنية الرخيصة الصدئة المتهالكة ذات السطح المربع الصغير الصفيح، اللمبات النيون المستهلكة، ضعيفة الإضاءة، المغطاة بالأتربة، على جوانبها شباك العنكبوت، السقف عال جدا، التلفزيون صغير مكتوم الصوت، وضع على رف شديد الارتفاع، يكسر عنق من يحاول أن يشرئب ليتطلع إليه.

الصيحات الطفولية والتشجيع الجنوني من حولي، هتافات وتهليل، أنظارهم معلقة بالزهر وأرقامه، يزفرون ويشهقون، يتبادلون التعليقات والسخرية، منتشين تماما، مأخوذين باللعبة إلى آخر حد، متوحدين بها، يضحكون، يضربون أكف بعضهم البعض، يقفزون على كراسيهم، يغمزون بعيونهم.

جلست ساكنًا، لا أتحرك وإن كنت أبتسم لنكاتهم، أتابع تحركات القواشيط، أرقام الزهر في غير اعتناء.
حسين أشار إليّ أن ألعب الدور التالي، حاولت التمنع، نهض من كرسيه، تبادله معي.

- تعالى بس.. أقعد وورينا نفسك.. الطاولة بتاعتنا ولا المحترف الأمريكاني؟
- البلدي يوكل..
- ده أنت لسه زي ما أنت ابن بلد.. طب ورينا بقى نفسك يا عم.

لم ألعب الطاولة في حياتي، بالكاد أعرف شكلها، لم أجلس إلى مقهى قبل سفري إلا في حدود ضيقة جدا، قبل أن ينتصف أول دور لعبوه ومن متابعة بعيدة لا تعنى بالتدقيق في اللعبة، متابعة فرضها جلوسي معهم ولعبهم أمامي، كنت قد أدركت قوانينها، عرفت باتجاهات تحرك القواشيط، جل حيل المكسب، تعطيل الخصم، طرائق الهرب بالقواشيط، نقلها السريع من جانب الطاولة لأقصاها مرورا بكل الخانات.
كانت كل حيلها وأرقام زهرها تنسطر أمام عينيّ بلغة رياضياتية خالصة، بلا مجهود أو محاولة للتفكير.

الحسابات تجري دون أي قصد مني، التحركات المثلى للقواشيط، أخطاء الخصم، كل احتمالات تحركاته بل وإحصاءات بالأرقام التي يميل الزهر لطرحها، كلها تأتي أمام عينيّ كأنها مسطورة بلغتي الأصلية، لا تحتاج لاجتهاد لقراءتها، فقط تنقرئ تلقائيا بمجرد سقوط عينيّ عليها حتى وإن لم أكن راغبا في ذلك.
أهزمهم جميعا بلا جهد، الوجوم والصمت على أوجه الجميع، فقط حسين بعد أن دارت دائرة الهزيمة على الجميع نظر إليّ نظرة ذات مغزى، البقية تبادلوا نظرات تخشى أن تتطلع

مباشرة إلى المقل، نظرات محرجة، خائبة، مهزومة، ابتسمت في ثقة وبلاهة.
مرتضى مدرس الكيمياء كان أول من لاعبني، أثارتهم تحركاتي، ضجوا بالتصفيق، العناق، النيل منه عندما هزمته، غنوا له، كادوا يختنقون بضحكاتهم الكثيرة، اهتزوا طويلا في نشوة وبدت في أعينهم سعادةً مطلقةً وشماتة.
ثانيهم كان محروس، موظف في السجل المدني، بدا ممتقع الوجه وهو يشهد القواشيط توشك أن تطيح به، قلب الطاولة مغضبا لاعنا الحظ، مسلِّما بالهزيمة، عندما حبست له نصف قواشيطه في الربع الأول من الطاولة بينما أوشكت جل قواشيطي أن تصطف لتخرج..
هذه المرة كان ترقبهم وعجبهم أقوى من نظرات السعادة والشماتة..

- ده أنت طلعت حريف بقى .. إيه؟ ماكنتش بتعمل حاجة في أمريكا غير إنك كنت بتلعب طاولة؟؟
- لا حريف ولا حاجة.. ده حظ مبتدئين.

بهزيمة أيمن الصيدلي حل الصمت تماما، انتكست رءوس الجميع، حسين جلس أمامي، لاعبته وهزمته، فقدوا جميعا الرغبة في المواصلة، أرادوا الانصراف، حسين استبقاهم بكل الطرق، مرتضى أقسم على أن يلاعبني لمرة أخرى ليثأر لكرامته ولشرف اللعب.
انهزمت له وأبديت ضيقا وغضبا، سببت الزهر والحظ، حظ المبتدئين الذي صاحبني حتى رفعني ثم خسف بي الأرض، حطم عنقي، تخلى عني.

عادت الضحكات الرنانة، القفشات، القهقهة، التعريض، أفسحوا لي مكانا بينهم، أكسب أحيانا وأنهزم لهم أخرى، يربتون علي ويرحبون بي، ضموني لمائدة الحوار، لدفء أكواب الشاي والينسون والقرفة.

التلفاز يعرض أحد المسلسلات القديمة، مرتضى رمى بالزهر فارتطم بجدار علبة الطاولة وقفز خارجها، أنحني لألتقط الزهر من بين رجليّ، أناوله لمرتضى، حسين ضحك، هز رأسه في إشارة وهو يقول:

- خلاص أعصابك فلتت.. مش عارف تنشن؟
- مين ده اللي مش عارف ينشن؟! .. ده أنا نشنجي درجة أولى وغرامياتي تشهد..

مرتضى مدرس الكيمياء الذي سافر إلى الخليج، أمضى في صحرائه، قيظه، سكونه، أمواله، ضيقه به، وحدته، انعزاله، ملله، أمضى ثمانية أعوام كاملة، يعود في إجازة نصف سنوية لأسابيع قليلة قبل أن يواصل سفره، بدا الأمر له مفاجئا وبلا مقدمات، عاد ليكتشف أن الزمن قد هدَّ زوجته، نال منها، جعَّد وجهها، أوهن عظمها، أصابها بالسمنة، ثقل الظل، ضربها بالعجز، العيال مصّوها، رغم سمنتها ووجهها المستدير الممتلئ إلا أنها شاحبة، ذابلة بعيون مُطْفأة، العيال استغربوا وجوده، امتعضوا من ذلك الوجود الذي لم يعتادوه، في البداية رحبوا به كضيف ثم عاملوه كمتطفل فضولي غير مرغوب فيه، أداروا له وجوههم وسعروها، حديثهم معه قاس، رافض، غضبان ..

حنا وقسا، ضم، ضحك، ضرب. شجارهم والشحناء بينهم لا نهاية لها أو حل، مشاكلهم عصية لا يشركونه فيها، يعاملونه كغريب غير مرغوب فيه، عدو يتربص بهم وبسعادتهم.
عاماً كاملاً قضاه مهموما، نحيلًا، شاردًا، مغمومًا، مشغول البال، زاهدًا في الحياة، لا يرد إلا في جفاء واقتضاب وتقطير، في عينيه دموع متجمدة، حول عنقه حبلٌ خانقٌ لا ينفك أو تخف ربطته وعقدته، حبل من همٍ مجدول يدميه، يهري لحمه.
سبَّ امرأته، بصق عليها وعلى أبنائه، خرج من عندهم عيناه تقدحان بالشرر، أفرغ فيهم مشاعر ضيق وفقد عام كامل، أوشك أن يقتلهم، عزم على هجرهم للأبد، كانت الشياطين تتقافز أمام عينيه، توجه يديه ورجليه ولسانه.

مرتضى تزوج على امرأته، هرب إلى صدرٍ جديدٍ، بيتٍ بلا شحناء أو ضوضاء ولو إلى حين.
حسين أخبرني أن مرتضى يخشى عناء الذهاب إلى الأولى ويخاف أن تقتله الثانية، يشعر أنها تبيّت له نيّة، تنتظر اللحظة المناسبة لتنال منه، ابنه الرضيع منها قد لا يشفع له، يخشى مغبَّة تطليقه لها، انتقامها وأهلها، النفقة التي سيتورط فيها، البيت الذي اشتراه لها وسيخسره، يخاف كذلك أن يقلع عن الذهاب إليها، ساعتها يعلم أن مخاوفه وخشيته ستستحيل إلى وقائع عذاب وألم، ربما تؤجر من يؤدبه أو تسلط عليه أهلها البلطجية، متى كان عندها لا ينام، يفتح عينيه على اتساعهما، يراقب كل حركاتها، أنفاسها، سكناتها، ينتظر الغدر، يحارب النوم.

حسين، ابنته الصغرى طُلِقت منذ أيام قليلة، بعد زواج دام لعدة أشهر وأشهر أخرى في المحاكم، أعادوا له كل شيء، المهر، الشبكة، المؤخر، هداياه، ابنته عادت لتقيم معه وأمها، ذابلة، مطفأة، شاردة، مكسورة.
عادة ما أنصرف من المقهى قرب منتصف الليل، القاهرة مدينة مجنونة، ساهرة، كأن أهلها لن يستيقظوا في الصباح، في أمريكا حيث كنت أقيم تجد العالم كله وقد أغلق مبكرا،
لو عانيت الأرق وقررت النزول لن تجد إلا صمتًا مطبقًا، هواءً راكدًا قد يحن عليك أحيانا ويداعبك، كأن العالم كله قد هدَّه التعب وأخلد إلى النوم، هدوء الليل يحل كالموت، أخشى ذلك العالم ونهاراته، أموت من الرعب ألف مرة بالليل.

كثيرًا ما أستبدل ركوب التاكسي بالميكروباص، أفضل الجلوس في آخره على الجانب بجوار النافذة، لا يضايقني صعود ونزول الركاب، أراقب تصرفاتهم لأجل بحثي، أقتنص غفوات قد لا أستطيعها حين أكون وحيدا في التاكسي.
حسين سار معي ليوصلني إلى موقف الميكروباص، يداه في جيبيّ البنطال، يحاول أن يقيم ظهره، يحاول الاستمتاع بالنسمة الرقيقة الجافة لليلةٍ صيفيةٍ هادئة.

- ماقلتليش الدكتور قالك إيه؟
- الحمد لله.
- تستاهل الحمد.
- مش أنت كل يوم والتاني تفضل تقولي .. إني باموّت نفسي وإن السهر غلط وإن الشاي والقهوة غلط وعامل

فيها دكتور؟.. تفتكر يعني الدكتور بعد كل ده هايكون قالي إيه؟

- استغفر الله العظيم.. أنا خايف عليك.. طب وبعدين؟.. طب يا أخي ما تلتفت بقى لصحتك.. خد العلاج وانتظم عليه وارحم نفسك، ولا أقولك .. ماتفهمنيش غلط.. بس لو السفر أحسن لك سافر.. أقعد مع عيالك .. هناك برضه أكيد الطب أحسن.. وعيالك هياخدوا بالهم منك وهيخففوا عنك ..
- إن شاء الله ..
- كله بإذن الله، بس أفهم، انت بتعمل في نفسك كده ليه؟!
- يا سيدي..! وبعدين هوا أنا باعمل ايه يعني؟!
- هتفضل زي ما انت راكب دماغك.. نقول يمين تعمل شمال، نقول شمال تقول أومال أنتم يمين ليه؟.. ماتغيرتش ولا غيرتك أمريكا والسفر.. مافيش فايدة.
- على العموم وعلشان تعرف إن كل ده كلام فاضي مالوش أي لازمة.. الدكتور النهارده قالي إني باتحسن وهاخف.
- يعني إيه؟!
- يعني صحتي جت على اللي باعمله ده والعيشة دي وإن كان مش فارق.
- طب الحمد لله.
- آآآآآآآآه طبعا.. الحمد لله.

أحشر نفسي في عربة المترو وسط الأجساد المعروقة، لم أتخيل أبدا أن تدور الأيام لتنتهي بي وأنا أقتحم الزحام برغبتي لتقهرني حرارة الأنفاس، لزوجة العرق، سافرت طمعاً في درجةٍ علميةٍ، تجربةٍ تصقلني، احتكاكٍ، اقترابٍ من مفرخة العلماء، رجوع مشرف بصيت، شهرة، مال، أنف في السماء قبل أن تخطفنيً النداهة، تغريني أنهار عسلهم، دعوني للنزول فيها، السفر في الزمان والمكان نحو الضوء، أشارك في وضع نظريات تصف الوجود، أعقد العالم وأعيد فكه ودمجه، أتحدث بلغة الرب، أذلل عقبات تمنع تقدم الفيزياء، أخطو فوق كل معضلة رياضياتية وأبتكر الحلول، أسهم في تشكيل المحتوى المعلوماتي للحياة ذاتها، أصعد وأتحقق..

ربما أخسر تمشيةً على الكورنيش، حديثًا مملًا مع الأصدقاء، بصراحة -واجه نفسك بالحقيقة- ما يشغلك غير ما يشغلهم، حتى حسين لقاءاتك به متباعدة، استحال إلى موظف نمطي، لا يفكر إلا في المرتب، العلاوة، الزواج، بطن زوجته التي تنتفخ، إنسانٌ لا يشغله معنى وجوده أو أي آمال أو أحلام كبرى، فرد عادي جدا، سيأتي ويذهب بلا بصمة ، رجل كمليارات يولدون ويموتون فقط.

أبي وأمي سيشقيني البعد عنهما، سأجتر الذكريات، أحاول أن أتشبث بها، أستشعر لمساتهما على جلدي، التربيت على قلبي، الرائحة في أنفي، أرتاح لقبلة دافئة لأهنأ ليلتي، لكن الذكرى ستنفلت، تتركني لأتعذب، محروما، شقيا..

قبل أن أسافر حاولت أن أتزوج، دفعوني دفعا نحو إكمال نصف الدين، أحظى بزوجة تقيني فتن الغرب، تكون لي سكنًا وأهلًا، تُفَرِّج عني الضيق، حتى وإن سافرت في البداية بدونها فستكون هنا تجتهد في طاعتي، بتولًا في انتظاري، تصون العشرة، تحميني من نفسي، عندما ضاق عليّ الوقت وأزفت الرحلة، أمي وبحنان شديد ووجه عطوف بريء صارحتني بما في نفسها، ابنة خالتي مؤدبة، جميلة، بلا عيب، خسارة أن أسافر وأضيّعها، أتركها للغريب، أحاول أن أرفض في رفق، لا تروقني وكفى، أمي لا تقتنع وتلح، لا تتقبل كلمة مثل "مش عاجباني" لتبرير عدم إتمام الزيجة، بالنسبة لها هذا ليس سببا، هذا ترصد، رفض للزواج من الأصل، البنت بلا عيب وأنا أتذرع بحجج لا منطق لها، سافرت لأول مرة، بيني وبين أمي جفوة، كدت أرضخ لها كي أرضيها، رحلة الطائرة التي استمرت لأكثر من ثماني عشرة ساعة وتخللها ترانزيت في باريس لساعتين لم أستطع أن أغمض عينيّ خلالها، رأسي طوفان من الأفكار والأهواء، أتمنى لو أني قد وافقتها، ضمتني قبل أن أغادر ودعت لي بالسلامة، في عينيها دموع متجمدة، لهفة وقلق، أبي من خلفها يحاول أن يشد من أزرها، أن يبدو صلبًا، يضحك ويسخر، حاولت التهرب من عينيها، مغالبة دموعي، أغمرها وأبي بالقبلات، أهوي على يديها، أقبلها، رأسي منكس، أتحاشى النظر في العيون، أخشى رؤية انسياب الدموع، أهرول مبتعدًا..

أتمنى لو تعود الطائرة، لو أني قد رفضت السفر من الأصل، لو لم تتفتح لي الحياة وتعرض كل ما فيها، لو جعلت مني موظفا

كحسين، آخر كل نهار أعود لأريح جسدي، أضم أهلي ويضمونني، لو يعود الزمن وأوافق على الزيجة، ابنة خالتي جملية، تريد أن تعيش، ما إن تصل الطائرة حتى أتصل بوالدي، سأبكي وأتذلل وأصرخ وأرتاح ويسامحونني، سأخبرهم أني في أقرب أجازة سأتزوج من ابنة خالتي، أمي تخطف السماعة من أبي:

- وحشتني قوي ..

قالتها وهي تبكي من القلب، تسيل دموعي.

- ماتزعلش يا حبيبي.. بنت خالتك مش عاجباك خلاص.. انبسط أنت بس واتجدعن وارفع راسنا وربنا يوفقك.. بس طمنا عليك أول بأول.. إحنا كويسين، لما تيجي هتلاقيني شفت لك عروسة تانية لو تحب.. بس ابقى قولي أنت ذوقك إيه.

لا أعرف كيف صارت حياتي كذلك، بدا وكأن أطراف خيوط كثيرة قد انجدلت بعضها في بعض، مشيت معصوب العينين، مستندًا إلى الحبال، تسلمني نهاية لبداية، هناك في "ويست فيرجينيا" ابتلعني النظام، العمل ممتع، النداهة حيزبون تعرف كيف تخدرك، تنال منك، تغرقك، ثقتي في نفسي في السماء، لا معضلة تصمد أمام محاولاتي، كنت طفلا يحل الأحاجي، الواحدة تلو الأخرى فلا أشعر بمرور الوقت، انسراق العمر، هناك ملكت أن أتحدث إلى الأرقام والمعادلات، أناجيها، أختبرها، أشرد فيها، أراقصها، أداعبها في حنو فتلين، تسلم، تبوح، تفصح، تعابثني وأنال منها..

الآن أعود، فلا أعلم لماذا أو كيف عدت، أهلك نفسي وأستهلك جسدي وأفقد روحي المفقودة بالأصل، أقف عاجزًا عن حل ذلك اللغز، أتصرف بحدس لا أساس له ولا منطق، حتى بحثي الذي أسميه بحثًا، مشروعي السري الأحمق وبرنامجي الذي ابتدعته محض هراء، محاولة للتشاغل عن الموت الذي يحيق بي، عن الخسارة التي منيت بها ولم أكتشفها إلا الساعة.

أدعي أني أقف على طرف الغليان، أتأمل لحظة فريدة، أحللها وأتنبأ بالمستقبل، أرصد البشر، أفعالهم، أحاسيسهم، رغباتهم، شهواتهم، أخلاقهم، تدنيهم، أحوّل ذلك لمتغيرات من أرقام، أسقط في لغط من حسابات لا تنتهي ولا تفصح إلا عن كل هراء، ألقي بي في المترو، في الميكروباص، في الشوارع المزدحمة، على المقاهي وفي القيظ وأراقب، أشتري كل الجرائد وأرصد كل مواقع الأخبار وأغرق في أرقام لا نهائية.. أن أموت مخنوقًا بأرقامٍ حاصرتني وسدّت مداخل تنفسي أشرف من أن أموت في سكينة وعلى فراشي، في الحالتين سيلقون بي ويواصلون، لكنني على الأقل ربما أخفف عني سكرات الموت..

أنسحب إلى منتصف عربة المترو تحت وطأة الزحام، أحاول التشاغل بقراءة الجريدة قبل أن أفشل في التوفيق بين ترتيب جسدي في الزحام وسط الركاب وبين الإمساك بالجريدة، أحاول الشرود في معادلاتي، استرجاع بعض البيانات لتمرير وقت الرحلة.

المترو توقف فجأة، ساد الظلام، اندفعت الأجساد للأمام بفعل القصور الذاتي، تكومت على بعضها، البعض سقط، كان التيار الكهربي قد انقطع فجأة.. استحالت عربة القطار لقبر، مظلمة، حارّة، مكتومة، قابضة..

انتفضت فزعا، يدٌ تتحسس مؤخرتي، أدفعها بعيدا وأقف متحفزا، دوت صرخة من امرأة وصوت صفعة..

- جرى إيه يا ابن الكلب... يا وسخ..... بتعمل إيه؟!

سباب من رجال، صرخات نسوية، أياد لا يمكن تمييزها تضرب كل ما تطال في الظلام، أحاول التراجع والانكماش، جلوس القرفصاء والالتصاق بالأرض.

ركلات وضربات عميانة على امتداد الأذرع لكل ما تطال وشتائم وصراخ وأنين، بيدي أحمي وجهي وأنا جالس القرفصاء، أتفادى إصابة وجهي ورأسي..

للمقهى عليّ مفعول السحر وكأنني أولد هناك إنسانا من جديد، لوهلة أنسى البحث والرياضيات وابنيّ وميري والعالم الذي على الحافة والسرطان والموت..

أضحك كطفلٍ وأقهقه كعربيد، أعيش الحياة بوعي بدائي لا يهمني إلا أن أكسب دورًا في الطاولة وأخادعهم في آخر، أنهزم لهم، أبتدع النكات والقفشات، جربت تدخين النارجيلة بكل أنواعها، القص والسلوم والفواكهة، التلذذ بالدخان وبمفعوله على الدماغ ونفثه ليتشكل في حلقات ساحرة من شواشٍ قبل أن يتبدد في الفضاء، لكنني ومن آن لآخر ودون أن أدري يردني

فكري إلى وعيي كعالم رياضيات وأبٍ فاشلٍ وحبيبٍ مهجور وميتٍ مرتقب، يبتلع الصمت هذري ويقطب جبيني وأُعاقب بضِعف الهم جزاءً وفاقًا لدقائق سرقتها مني.

الطاولة والزهر والأرقام التي تطرحها وحركة القواشيط، سلسلة من الاحتمالات وشواشٍ وفوضى تامة، عوالم تتوالد و تفترق مع كل رمية، آلاف الأكوان تنشأ وتفنى وتزول وتبقى، قوانين بسيطة مختبئة تحت السطح، كذلك البشر والحكايات. أتأمل الوجوه، حسين ومرتضى ومحروس وأيمن وزبائن المقهى، الوجوه الشاردة والضاحكة والمجعدة،

ألحظ الحاج إبراهيم صاحب المقهى وهو ينظر إليّ أنا الأفندي ذي الشعر الأبيض والملابس الكلاسيكية اللامعة ونظارتي الغالية وبشرتي المرفهة، كيف ولماذا جئت إلى هنا؟! ما الذي جمعني بحسين وشلته؟!..
حسين هو الذي لفت نظري إليه، علَّمني أن أستمتع بحيرته وأن أزيدها ببعض الوجوم والإلغاز..
الحاج إبراهيم رجل ربعة، مثقل بالدهون، حركته بطيئة، يجرجر أكوام الشحم، قبل أن يجلس يضبط أبعاده، يتطلع إلى أبعاد الكرسي ثم ينحط في هدوء، شاربه عريض، شعراته نافرة، قال حسين أنه قد ورثه عن أبيه الحاج إسماعيل. في جلسة سمر جمعتني بحسين تشعب الحديث، تضاعف كزبد البحر، وصل إلى سيرة الحاج إسماعيل، قيل أنه أتى من الصعيد، اشتغل بالفاعل، نقل الرمال والطوب إلى الأدوار العليا

في البنايات الحديثة، ادخر القرش فوق القرش حتى تمكن من بناء بيته المِلك، جعل من طابقه الأرضي مقهى، اتخذ لنفسه مقام المعلم، يجلس على مكتب يحضن كل الشارع ويعلوه،

يدير منه كل الشارع، لم يهجر تماما مهنته الأولى في الفاعل رغم تقدمه في العمر وإن اختص بها زبائنه المقربين كنوع من المجاملة، إسماعيل ولوقت قريب في ليالي الصيف يتحرر من جلبابه، يبقى (بالصديري والكلسون)، يستمتع بهواء رطب، يراقب الشارع، يدخن الجوزة، في الشتاء يوقد النار، يجمع الأخشاب، الأوراق، القوالح من القمامة يشعل فيها اللهب جالسًا القرفصاء قبالتها.

يُروى عنه أنه في ليلة شتت عصابة كاملة، شج رأس أحد أفرادها، كسر ذراع الثاني ونجا اثنان آخران برضوض وجروح عميقة. يحكي البعض أنه كان (مخاوي)، أن سهراته كانت للتنادم مع ملوك الجان، لم تهن قبضته أو يتجعد وجهه أو يبيض شعره، مات في التسعين بجسد شاب، وجدوه ذات صباح يجلس جلسته المعتادة والجوزة في فمه وبصره شاخص.
لم يبقَ من سيرة إسماعيل ونسله إلا هذه المرويات وابنه إبراهيم. أخبرني حسين أن الحاج إسماعيل قد ترك ذرية ضخمة من بنين وبنات، تبددوا وكأنما لم يكونوا، صرعتهم الأمراض والحمى أو تَخَطَّفهم الشياطين، أو ربما دبر لهم إبراهيم المكائد، حبس البعض، قتل البعض، قهر البعض، سافر بعضهم للخليج أو عادوا للصعيد، لا أحد يعرف، فقط بقى

إبراهيم وبقت القهوة، اشتراها منهم، أخذها بالحيلة، قايضهم عليها، لا أحد يعرف.

إبراهيم قدر على إخوته بالحيلة أو بقربه من المناصب السيادية كصول متمرس في قسم شبرا، باعوا له أو تنازلوا، لا أحد يعرف.
حسين يصر على أن إبراهيم قد ورث من أبيه الحاج إسماعيل الجسم والعقل والإدارة والفتوة والبلطجة لكنه طورها بتطور الزمن ومتطلباته.

إبراهيم تطوع في الشرطة كعسكري ثم ترقى بالتدريج حتى أصبح صولًا، يجلس على كرسي المعلم، يضع قدمه على فخذه اللحيم المغطى بالجلباب البلدي المنسدل ويهتز في عظمة، يرقب كل شيء بعينيه الضيقتين ويفرض سطوته.
في الساعات الأولى من الصباح يتحول المقهى إلى مكتب حكومي، كل من يريد قضاء مصلحة في السجلات المدنية أو استخراج رخصة أو التحايل وتزييف ورقة أو استخراج باسبور يقصد مؤسسة إبراهيم، إبراهيم واسطة خير، يعرف في تصريف كل الشؤون والتسعيرة معروفة وثابتة.
من سُرقت سيارته أو شقته أو انخطف هاتفه المحمول من يده يقصده، أيام قليلة وتعود المسروقات إلى أصحابها.
إبراهيم لا يترك شيئًا يمر، عيناه الضيقتان تدوران، تترصدان كل حركة وهمسة، أذناه منتصبتان كأبواق وطواط تجمع كل شاردة وواردة.

حسين أدمن الجلوس على هذا المقهى كنوع من المغامرة الوحيدة في حياته، التسلي بالاقتراب من العالم الغيبي السفلي، لا يمكن أن أنسى الابتسامة والأريحية التي همس بها في أذني.

- استنى بس.. هنشوف وش المعلم إبراهيم أول ما يشوفك وأنت داخل معانا.. الأفندي الأمريكاني اللي جاي من بلاد العم سام علشان يقعد على قهوته المشبوهة... ده احنا هنضحك ضحك الليلة دي...

انفجر في الضحك ثم عقَّب قائلا "اللهم اجعله خير"..

في الميكروباص جلست بعد أن ودعت حسين، السائق ينادي على عربته، أراقب السائق والعربة الآخذة في الامتلاء ببطء، أفتقد زوجتي وولديّ، أفتقد النوم على فخذها وتدليكها لفروة رأسي، ابتسامتها الطيبة، رائحة الياسمين في أردانها، عبق الأنثى في بشرتها عقب الاستحمام، نغمة صوتها، جسدها الرقيق لم يتحمل ارتطام السيارتين، تحطم داخل سيارتها، فارقتني وتخلت عني، تركتني للوحدة، الأولاد كبروا وأمريكا بلد لعين، يجبرك على مواصلة التنقل من ولاية لأخرى تجري وراء الفرصة والسراب، الولدان قررا تتبع مستقبليهما وقررت مواصلة عملي.. ذهبت وأخذت معها الونس والرغبة والأمل، أجّلتُ التقاعد كثيرا، وعدتها به لكنني واصلت تأجيله، سأتفرغ لي ولها وسنستمتع بما بقي لنا وبصحبة بعضنا البعض والحديث والتسامر، أجرمت في حقها فقررت معاقبتي.

كانت من أصل سوري مقيمة في أمريكا مع والديها اللذين هاجرا مبكرا، أتمنى لو كان الزمن قد توقف في لحظة، هي إلى جواري بأناملها تداعب وجهي، مرتمية في أحضاني، أرقب نمو الأطفال وأسعد به، يبرعون في تشكيل الصلصال وحل الأحاجي والألغاز.

أفيق على ركود الهواء وسخونته، كنت منتشيا بالسرعة وببرودة التيار، يرتطم بوجهي ويخدرني، العربات تمشي ببطء، الواحدة في ذيل الأخرى، الركاب يشرئبون بأعناقهم، يحاولون استطلاع الأمر، السائق يخبط كفا بآخر ويحوقل، راكب يهتف "يا الله".. امرأة خمسينية تضرب صدرها.. أشرئب بعنقي كذلك، أحاول استطلاع الأمر، على جانب الطريق كانت هناك عربة مقلوبة، أتت النار عليها، على الأرجح انفجرت، بالقرب منها عربة شرطة وبعض المتفرجين المتناثرين..

حركة العربة بطيئة وثرثرة الركاب عن الحوادث التي زادت، والأمن الغائب والطرق غير الصالحة والفوضى الضاربة في كل شيء، ضوضاء كزوبعة في رأسي، أفكر في النزول مرارًا والترجل، أمشي للأمام، أتجاوز الزحام، التكدس المروري، أشعر بتصلب مفاصلي، بألمٍ شديدٍ يجتاحني، أنظر حولي في توتر، كان الأمر بالنسبة لي كقطرات مطر تتنزل الواحدة تلو الأخرى لتصنع فرقعة عالية في إناء مملوء نصفه، تحرمني الهدوء والسكينة والنوم والخيال والشرود..

الرجل الجالس إلى جواري لا يكف عن النظر في ساعته والتأفف، الرجل أمامي استند برأسه إلى الزجاج ونام، القمر لم يكتمل بدرًا بعد، الأتوبيس الذي يسبقنا يبعث عادما كثيفا مهيجا لأنفي وعينيّ، أغلق الزجاج.

بينما كان التلفاز يعرض مسلسلًا قديما، حسين وأصدقاؤه منشغلون تماما بمتابعة أرقام الزهر استرحت بظهري إلى ظهر الكرسي، مسحت بعينيّ أرجاء القهوة، جلستنا جاءت إلى جوار مكتب المعلم إبراهيم، جلس إلى اثنين من نفس عمره، لهم نفس بنائه الجسدي، أجسادهم هرمية، لهم جميعا نفس النظرة الرمدانة والعيون الضيقة المصمتة والتعبير الجامد، الضحكة العالية المشروخة، المتحشرجة، الرقبة المتعالية والظهر المحني.

- الواد محمود جوز بنتي مسحول من امبارح في الخصوص، علشان المرقوع ابن الكلب اللي ضرب زميله بالكازلك!!.. عيال سوّ.. ابن الوسخة طير دراع الواد وسابه يشلب دم، بقت حاجة تقرف.. كل ابن كلب معرص شايل له سنجة ولا مخبي مطواة ولا رافع فرد.. وكله عامل راجل واحنا اللي شايلين الطين .. الواد مات في ساعتها وعيلته مش هفية وشواضلية وصيع وبلطجية وشمامين ومش هتعدي على خير.. أقطع دراعي من هنا أما بقت سلخانه.. المخبرين في كل زخنوق بس ساعة القدر ولا حد هينفع والدم هيبقى للركب..

أُغمِض عينيّ، أنقطع عن العالم، أتوحد به، أحاول ملء فراغات الحكاية واللغة، فك رموزها ورد تطورها لإدراك ما يقولون..
المعلم إبراهيم كتماثيل الشمع، يرفع السيجارة إلى فمه، ينفث الدخان ويتكلم فتخال شفتيه لا تتحركان، يفرض سطوته بلا مجهود، حاجباه معقودان، يفكر بجدية، مشغول بالأمر، كان متصلبا تصلب أولئك المصابين بالشلل الرعاش..
أتظاهر بالتشاغل والشرود، أتعمد عدم النظر إليهم..
كان الفتى قد بيّت النية، أخفى السكين الطويل في ملابسه، اقترب من خصمه، ناوله في قوة، غرسه في اللحم وانتهكه، قطع شريان الذراع، راقب تدفق الدم كالنافورة، قيل فزع، قيل بصق عليه، لكنه في كل الأحوال سارع بالهرب، جرى كمجنون بلا توقف، رآه الجميع، المضروب شاحب، أنفاسه لاهثة، يتلوى، يضرب بذراعيه وقدميه في سعارٍ، بغير وعي، عصبوا ذراعه وحاولوا إيقاف سيلان الدم..

أهل المضروب أقسموا على الثأر، عائلته راسخة في (الخصوص)، أمه ضربت أصداغها، شقت ثوبها، كادت تسقط من الإعياء والألم والجزع، لا تلقى أحدا تعرفه، صادق ابنها أو بينهما صلة دم أو نسب إلا وسألته الثأر، استصرخته، بكت بين يديه حتى كادت تزهق روحها، تمرغت في الأرض وصبت على رأسها التراب، غدروا به وبشبابه..

أهله يجمعون السلاح، المذبحة جلية، تعلن عن نفسها وتبشِّر، لا يبتسمون، لا يصافحون، لا يتقبلون العزاء، جمعوا السلاح، أخفوه وكوّموه واجتهدوا في الحصول عليه وتهريبه، عزَّزوا مخزونهم منه، أهل القاتل خبئوا ابنهم، سفّروه أو حبسوه أو لعنوه وقتلوه وذبحوه، جمعوا كذلك السلاح، لا يمشون فرادى، خبئوا بناتهم ومنعوهن الخروج، سهروا على تأمين مساكنهم وتجارتهم.
يغلقون دكاكينهم من المغرب وقد تدججوا بالسلاح، يرقبون كل رائح وغادٍ في قلق، يغلِّقون عليهم أبوابهم والشبابيك بحديد وأقفال وينامون بأعين مفتوحة وحراسة.
ربما يدفعهم الضيق إلى استباق الموتورين، ذبحهم ورميهم بالنار وتحريقهم ومساكنهم ومتاجرهم والتمثيل بهم وبمن يعضدهم.

الأرقام لا تعرف الكذب، تراكم الصدف ليس صدفة، العالم كله خاضع لقوانين الاحتمالات وكل احتمال على ضآلته ممكن.

نظرية الكوانتم عند بعض المفسرين تقول بأن الأرض قد تندفع كالإلكترون خارج المدار، تقفز قفزة كمٍ هائلة لمدارٍ آخر في مجرة أخرى أو ترتمي في الفراغ، لكنه احتمال برقم مرفوع لأسٍ سالبٍ تسبقه عشرات الأصفار، احتمال غاية في الضآلة.. لكنه موجود..

في تلك الليلة وعلى الطريق من شبرا للمعادي صادفت أربع حوادث، سيارة مشتعلة ومنفجرة، أخريين محطمتين تماما، ورابعة مقلوبة، أضواء الإسعاف والسارينات والزحام واللجان المرورية وعربات النجدة على طول الطريق.
الموت في كل مكان، يضرب بمنجله، اللعنة لا بد نازلة، لا تفرق بين غني وفقير، أبيض أو أسود، متدين أو ملحد، صعلوك أو موظف، عالم مثلي أو رعديد..
الأرقام مطلقة تحكم كل شيء.

(4)

نشرات الأخبار أصبحت غرائبية جدا، تشعر أن الدولة كلها تنهش في بعضها البعض، أفقد قدرتي على الاندهاش، كل شيء بات ممكنا، أرقامي تقول بذلك.

لا أجزع أو أسخر أو أبشر أو أحذر، أراقب كل شيء كمسرحية هزلية كئيبة بلا معنى.

لواء شرطة اختُطِف ووزارة داخلية مطالبة بدفع فدية، أو تصبح مسئولة عن مقتل ذلك اللواء.

طبيب جراح أخرجوه من غرفة عمليات تحت تهديد السلاح، اجبروه على توقيع الكشف على مريض وإجراء عملية له في الطرقة.

تتابع عمليات السطو على وحدات عسكرية من قبل البدو.

تهاوي شبكة الكهرباء وسقوطها سقوطا كاملا وانقطاع التيار عن كل مصر لمدة يومين خلال الأسبوع المنقضي.

هبوط أرضي يبتلع وزارة الداخلية وآخر يبتلع عمارة في الإسكندرية.

اشتباك بالأيدي بين الباعة الجائلين وقوات الأمن المركزي بوسط البلد وسقوط عشرات القتلى ومئات المصابين واستخدام البنادق والخرطوش والآلي والملوتوف والأسلحة البيضاء.

تطاول لفظي بين نقيب الأطباء ومدير أمن القاهرة حول تأمين المستشفيات.

اعتصام تم فضه بإطلاق السحالي والثعابين والعقارب عليه ليلا، وفي النهار أنهوه تماما بإطلاق كلاب شرسة، لم تنفع معها العصي أو إشعال النيران أو طلقات الخرطوش أو طلقات المقروطة.
مظاهرة تم تفريقها بغاز الأعصاب.
مبنى محافظة الجيزة اقتحمه متظاهرون، نهبوه وهشموه وأصابوا كل من كان فيه قبل أن يشعلوا فيه النيران.
حكومات تسقط كأوراق خريف ذابلة.

لم أنقم على شيء في حياتي مثلما نقمت على اللحظة التي تعرفت فيها إلى محمود نصار، قابلته للمرة الأولى في مؤتمر علمي عالمي أقامته جامعتي "ويست فيرجينيا"، جاء ليعرض ورقته البحثية ممثلا لجامعة القاهرة.
محمود نصار يصغرني بعامين، يدّعي أنني درّست له عندما كنت معيدًا بالقسم، يومها كان طالبًا ضئيلًا كغيره حسب الصورة التي أطلعني عليها وهو شاب، ربما جلس أمامي وسط العشرات بلا أي علامة مميزة أو دليل نبوغ. محمود -وعلى مر السنين- كوّم كرشًا، كان كأغلب المصريين لم يمارس الرياضة في حياته، أنفاسه يشقيها أقل مجهود، يتحرك ككرةٍ تتدحرج.
رحبت به كابن بلد من رائحة الوطن، أنتهز كل فرصة تجمعني بزملائي أو تلاميذي حتى أشير إليه، أفخِّم من منجزه العلمي، محمود لم يهتم بصحبتي، لم يعاملني بالمثل، عاملني كرجلٍ عادي، متطفل عليه، مجبر على الابتسام في وجهه مجاملاً في

توددٍ مصطنع، الغبي لا يدرك أنه يجالس واحدًا من أهم الرياضياتيين في العالم، براعته تجاوزت أوساط العلم والعلماء، بات يعرف بها العامة، لا يهمني في شيء، بهيئته المزرية وأفكاره الحمقاء ومنجزه الضئيل، لا يهمني كذلك كيف يعاملني الناس، لست مولعًا بالشهرة أو الأضواء أو المظاهر، لا أهتم بمراقبة ردود فعل الناس على مصافحتي أو عاطفتهم نحوي، كل ذلك بلا قيمة، لا يعنيني في شيء ولا يشغل بالي.. هو كغيره من أنصاف العلماء، لا يجل الإنجاز الحقيقي، عقله الغبي المريض يشبّه له أن لأمثاله قيمة وهو بالأساس لم يضف شيئا للعلم، لكنني ورغما عنه أستحق ارتعاده في حضرتي، انحناءه أمام عملي، ذكائي، كم الجوائز، عدد الأبحاث التي حزتها أو شاركت فيها.
لأتفه طالب عندي منجز أهم من ذلك الذي لمحمود نصار، له بعض أبحاث بقيمة متوسطة منشورة في دوريات لها معامل تأثير ضئيل، رغم ذلك يعاملني بترفع وعلو.

لكن محمود مختلف، ليس كبقية علماء الصف الثاني والثالث المدّعين الذين اعتدت التعامل معهم، شخصيته مختلفة، محمود ساخر، لاذع، جذاب، مجنون، منطلق، ألمعي، عبقري، مأفون..

التصقت به طوال مدة تواجده بأمريكا، أقنعت نفسي أنني بذلك أتلهى بتأمله في سخرية، كغر تافه منتفخ، فقاعة يزداد حجمها ويتوتر سطحها، أتأملها وأنشغل بمراقبة تكسر الضوء عليها وتحلله إلى ألوان الطيف، متابعة هدهدة النسمات لها ثم انفجارها وتناثر مادتها.
محمود لا يتوقف لحظة عن السخرية، يسخر من كل شيء حتى من نفسه، مظهره الرث، شكله، طريقته في ارتداء الملابس، التأنق، يسمي نفسه بالبالونة الهيليوم، ضخم وغير ثابت، لا تجذبه الأرض أو يستبقيه الهواء، يعدو ويسخن ويفرقع ويهوي ممزِقًا، يحفظ نفسه من ذلك المصير بطيات الدهن والشحم التي يكوِّمها عليه.
يقول عن ملابسه أنها كتلك التي لشحاذ ورث فأنفق ببذخ، اشترى الغالي الذي لم يفلح في مداراة أصله أو ضعف ذوقه، ملابسه لا تحيط بكرشه، لا تجمِّل خلقته، العطور لا تبدد تزنخ دهنه..
لم أدرك أن الاقتراب من محمود خطير إلا بعد أن زلت قدمي وأدمنت مجالسته، له فلسفته الخاصة، عقله المغاير وجنونه، فلسفته كاشفة، خطيرة، مدمرة، كطاعون أسود، لا منجاة لمن أصيب بها. كان كمصاص دماء لم يهتم بتصيد ضحاياه لكنهم يعشقونه، يتقربون منه، يتركونه ليدس السم في دمهم، فيهلكون ويتورد وجهه ويصبحون عبيد نظرته للعالم، لا يتحررون منها أو منه.

يقول عن نفسه أن له هيئة معلم وأستاذ جامعة يعيش في أوائل القرن المنصرم، يحشو أذهان تلاميذه بمعادلات ومنطق وأسماء وأكاذيب، يُنَظِّر لهم كربٍ أعلى، وإن كان أحيانا يؤاخذه ضميره فيصارحهم بما يعتقد فيه من أن الرياضيات بكل منطقها واشتقاقاتها ومعادلاتها وتطورها ونضجها ونموها لا تستطيع أن تعبر عن البديهيات البشرية.. تلاميذه يعرفون البديهيات حتى يحشو رءوسهم بأعمال بطليموس وجاوس وتلاميذهم وأساتذتهم فيفقدون بوصلة الفطرة، يجرفهم التيار فينبغون وفي ذات الوقت يهوون، يبدعون وفي نفس اللحظة يموتون بالحياة..

مجنون، عباراته غامضة، مخادعة ومقلقة، ذهاني، مريض.

أرفض الخاطر، لا تشابه بيني وبين ذلك المخبول، كثير الكلام، يهاجمني الخاطر في ضراوة. أمثال محمود وأمثالي لا يفكرون كبقية الخلق، لا يركنون إلى التفسيرات القديمة والقواعد البالية، لا يرتاحون إلى أن (واحد زائد واحد يساوي اثنين)، عقولنا تشتط وتهوّم، تقصد أراضٍ لم يطأها بشر. نستطيع أن نغيِّر النموذج كله والصندوق والإطار، أمثالنا يستطيعون أن يغيروا شكل الكون والإنسان والمدارك والمعطيات والنتائج.

أمثالنا هم الذين أخرجوا الأرض من مركز الكون ثم رأوا الكون كفقاعة ضمن فقاعات كثر، بعضها ينمو ويتمدد ككوننا، بعضها ينفثئ أو يتقلص أو يموت قبل أن يولد، رأوا قوى ذلك الكون كتشوهات في الزمان والمكان، وزعوها على أبعادٍ عشر.. لكن بين العبقرية والمجد وبين الجنون شعرة.

محمود نصار مخٌ معيب، يشرد فلا يعود، يشتط ولا يصحح، يذهب بعيدًا ويتوه، يتحدى النظرية ويهدمها ولا يصنع بديلًا، عقل خلق معطوبًا، يملك ما يُمكِّنه من أن يصبح أبرع مني وأنبغ، أعترف بذلك بلا ضغينة، لكنه مولود بخللٍ يعجزه فلا يقدر أن يتغلب على ذلك المجنون الذي بجوفه.
أحقد عليه، الجنون لذيذ وممتع، يجعل منك متحررًا بلا حسابٍ أو أزماتٍ أو قيود، لا يصيبك العنت وأنت تبحث عن تفسير لا يجيء. محمود غير مجبر على الانسحاق بجاذبية الأرض والعقل والبرهان والنظرية والثابت، لا يجلس إلى حاسوبه كل ليلة ليعيد إنتاج أفكاره وقد حجّمها المنطق. محمود حرٌ كطير وسيموت مثله بلا أغنيةٍ خاصةٍ أو نغمةٍ مميزة، لكنه يستمتع بكل لحظه حتى لحظة اقتناص الصياد له، سيضربه بجناحيه ويحاول خربشته بمنقاره ورجليه وسيموت بقلب منتصر..
الخاطر مرعبٌ ومخيف، محمود نصار صورةٌ ذهنيةٌ مني، هو أنا ولكن في بعدٍ آخر، ربما لو لم أسافر لصرت إليه، كنسخة واحدة في بعدين مختلفين، لو لم أسافر لصرت إليه ولو سافر هو لصار إليّ، مصاحبتي له ستجعل مني مجنونا، ستهلكني، وتدمر عقلي وتشغلني بما لا معنى له.

في بداية مرضي انهالت عليّ المكالمات، كتبت "الواشنطن بوست" و"الدايلي تليجراف" و"اللوموند" و"الأهرام" و"التايمز" وغيرها عن خبر مرضي، اعتبروه كارثة وطامة كبرى، المواقع الإلكترونية امتلأت بتمنيات الشفاء وكروت المواساة، لا أعرف جل من أرسل وكتب.

اليوم أجلس وحيدا في شرفة مسكني بالمعادي، أتطلع إلى الشارع الخالي، أحاول اقتناص نسمة هواء باردة منعشة، عندما تحضر يكون أقصى أحلامي أن أستبقيها ما بقي لي من عمر.. أخباري انقطعت، لا أحد مهتم بالسؤال عني، فقط ومن حين لآخر تهاتفني ميري، تخفف عني، يهاتفني ابنايّ وقد ضاق أفق الحوار بيننا، نتجنب الحديث في كل موضع ألم..

حتى أختي خَجِلٌ من أن أهاتفها أو أن أزورها، أشتاق جدا لرؤيتها، ضم بعض لحمي ودمي إليّ، لكنني أخشى النظر إلى عينيها، اللوم الذي ستبرقان به ويصعقني، أخاف أكثر من نظرة مسامحة بلا عتاب، أتضاءل أمامها وأتلاشى كتراب...

حتى اسمي لن يذكر إلا على استحياء في هوامش كتب تؤرخ للعلم، سأكون كالرياضياتي الفرنسي "بوانكارييه" أو "كلورنتز"..

أنفجر في ضحكة مجنونة، حادة، أليمة.

"بوانكارييه" رفع البناء الرياضياتي و"لورنتز" أبدع التحويلات و"أينشتاين" بلمسات أخيرة بسيطة نال كل المجد والشهرة.. هكذا الرياضياتيون يصوغون كل شيء، يشقون الطريق وتتورم أدمغتهم، يتوحدون بمعادلاتهم ومعضلاتهم حتى يبدون كغريبي الأطوار، بذهن طوال الوقت يحلق في عوالم أخرى ويحاول أن ينفذ لسر لغة كونية أعلى، ربانية، سُطِر بها الكون والزمان، ثم يأتي من يحصد مجهودهم على الجاهز وبجهد ضئيل.

أبتلع مرارة ابتسامتي، الصداع يزحف على رأسي، أدخل من الشرفة وأستلقي على الفوتيه..
رجالٌ "كهاوكينج" و"ميشيل كوكو" و"براين جرين" وغيرهم من علماء الفيزياء النظرية ينالون كل المجد، يهوِّمون ويحوِّلون نتائج تفكيرنا الرياضياتي إلى أساطير خرافية، بلغة العامة الأرضية، يحتكرون برامج التلفزيون، مانشيتات الصحف، الندوات العامة، يبشِّرون بأديانٍ جديدةٍ وقديمة، تمامًا ككهنة المعابد الوثنية، حولهم يتجمع اليائسون، المحبطون، الضائعون، الأغبياء، يعاملونهم كرسلٍ، يقتنصون عباراتهم كتعاليم وكشف، بينما العلماء الحقيقيون للرياضيات، من يملكون التحدث بلغة الكون والرب يذوون، لا يُذكرون حتى في الهامش. علماء الرياضيات الحقيقيون، أصحاب النظرات النافذة، الواصلون للب الحقيقة ينتهون إلى غياهب النسيان، بينما المرتزقة، المخادعون، الخَرِفون من علماء الفيزياء النظرية يخدعون العامة، ينصبون شراكهم، يتحصّلون على منجزنا الرياضياتي ويحرفونه ويشوهونه ليستثمروه في الحديث عن الغيبيات، عن كيف نشأ الكون وكيف تمدد وماذا كان قبله وإلى ماذا سيصير، يبيعون الخرافات والأكاذيب إلى المجتمع البشري الجاهل وينالون كل المجد بينما يموت الحقيقيون يائسون ومجهولون..
الرياضيات لا تدركها الحواس المحدودة، تحويل البناء الرياضياتي إلى مصطلحات بلغة الحواس البشرية المحدودة حماقة وخداع. الحواس أبدًا لن تدرك الأمر، والمقاربات التي يحاولون تقديمها تفاهات لا تعني شيئا..

يحاولون بجهالة ترجمة لغة الرب إلى لغة الفانين فتتبدى العجائب، كسحرة يبيعون للناس خدعة تحول الحبل إلى ثعبان.. ولا حبل هناك أو ثعبان..

غادرت إلى مصر في رحلة مباشرة من واشنطن إلى القاهرة، استغرقت ست عشرة ساعة، تناولت حبة تساعد على النوم، لم أخبر أحدا بسفري، عندما أصل إلى القاهرة سأهاتف ولديّ وميري لأخبرهم..
طوال مدة تواجدي بالطائرة وتحت تأثير الحبة التي تساعد على النوم أسقط في النعاس وأنهض، أغمض عينيّ من جديد، أهرب من التفكير، حسين أصر أن يكون في استقبالي عند وصولي للقاهرة، أخبرني أنه استأجر لي شقة في زهراء المعادي، لن أطيق السكنى في حيه الشعبي، هكذا أخبرني ولم أعقب..
أدرك أنها النهاية، فقدت الرغبة في كل شيء، بدأت في هدم عالمي بلا تفكير أو تريث، أتصرف بغير منطق في غرابة ودون أن أعي ما أقدم عليه أو أفهم مقاصدي.
حسين احتضنني في قوة، متهلل الوجه، يوشك أن يسحقني بضمته المشتاقة، يغمر وجهي بالقبلات، يربت على ظهري في حماس، أحاول أن أبادل حرارته بحرارة مماثلة، أشعر بالوهن، بعدم القدرة حتى على رد عبارات الترحيب المجاملة، أوسع من ابتسامتي في بلاهة، سعيد حقا بمقابلة حسين، أن ينضم الجسدان الكهلان بعد طول فراق، بدا أكثر فتوةً وبأسًا مني وبدوت محطمًا تمامًا، في بداية سفري تبادلنا المراسلات، حتى

انقطعت الأخبار، انفصل عالمانا وحاد أحدهما عن طريق الآخر بلا أي أملٍ في لقاء.

الفيس بوك عاد ليجمع الشتيتين، صداقة تجر أخرى ومعرفة تأتي بأخرى، دائرة علاقاتي تتسع وكذلك دائرته لأجد يوما طلبًا للصداقة منه. في البداية لم أصدق، تأملت الصورة والسيرة الذاتية أكثر من مرة، أصدق ثم أعاود الشك والتكذيب.
الزمن عبث بملامح حسين، ترك بصمته وإن حافظ على الخطوط العريضة والقسمات الأساسية لوجهه، لصديقي ثلاثة أبناء، يعمل كبيرًا للمهندسين في مصنع للمحركات. أضغط على أيقونة الموافقة على الصداقة منتشيًا ومترقبًا ومتحفزًا، أقلّب في صوره وما يكتب وما يشارك، أسترجع الذكريات وأحياها فتنفرج أساريري، أرتاح ويرتخي جسدي، أفتقده كثيرا، أتمنى لو أراه، أحتاج أن أراه، أن أتحدث إليه في أريحية، أسترخي في حضرته وأفكر معه بصوت عالٍ بلا حواجز أو توقعات أو سقف، أفك رأسي مما يكبلها وأستريح، مع تقليبي في صوره، أستشعر أنفاسه إلى جوار أذني، صوته تهتز له خلاياي، أبعث له على الرسائل الخاصة، أفتقدك كثيرا وسعيد أني وجدتك، أحتاجك، سأعود قريبا لمصر وسنلتقي، هل تذكر يوم تعرفت عليك للمرة الأولى، يوم تشاجرنا على أماكن الجلوس في الفصل، كنا صغارًا، هل تذكر نزهاتنا على الكورنيش، الذرة المشوية، صيد السمك، التحديق في النجوم، حسد العشاق وتناجيهم، السير بالساعات بلا غاية، هل تذكر الأسئلة التي كنا نتحدى بعضنا بها، هل تذكر يوم زرتك لأول

مرة، الغذاء الشهي الذي أعدته أمك ومباراة الكرة التي شاهدناها سويًا وهدف الخطيب، فرحك الذي حضرته،

يوم شكوت إليك أنهم أعطوني علبة طعام ينقصها العصير وكدت تهلك من الضحك ويوم ... ويوم... ويوم...
أضم حسين إليّ، أرتعد..
أحاول ردَّ وهني وضعف صوتي والدوار الذي ينتابني إلى قرص المخدر الذي يساعد على النوم والذي تناولته على متن الطائرة، بهذا تحججت أمام حسين.
العالم يبدو أمامي ضبابيًا، الرؤية يعوقها غبارٌ معلقٌ، ترقبٌ، ركود، أجلس إلى جوار صديقي في المقعد الخلفي للتاكسي أنقل عيناي بين معالم الطريق وبينه...
- أخيرا افتكرتنا وجيت!..
أبذل مجهودا لتحريك لساني الملتصق بحلقي.
- كله بأوان، البلد اتغيرت أوي .. مش كده؟
- يعني.. !! .. اتزحمت أكتر
- وانت عامل إيه أنت والعيال؟
- كلهم زي الفل.. كبروا واتجوزوا.. أنت أخبارك إيه وأخبار بلاد العم سام إيه ؟.. احكي لي
- أنا كويس .. وأمريكا كويسة.. وعمك سام زي الفل
- مالك؟!
- ولا حاجة كله تمام

سائق التاكسي ينتفض فجأة، يضرب المقود في قوة ويضغط الكلاكس في إصرار، يقطع حديثنا الدائر ويطغى صوته على صوت الست الذي علا راديو السيارة بأغنيتها

- بص السواق الحمار!!.. يخرب بيت أمك وبيت اللي ركبكم عربيات وعلمكم السواقة .. لا مؤاخذة يا بيه.

من بعيد كانت العربة تجري نحونا وقد سارت عكس اتجاه الطريق، تتفادى السيارات، تندفع بسرعة قبل أن تفاجئها عربة في المواجهة، تنحرف في محاولة لتفاديها، عجلة القيادة تختل بين يدي سائق العربة المخالفة، عربته تقف بعرض الطريق، سائقٌ ثالثٌ يضغط كابح السرعة في محاولة لتفادي الاصطدام، يتوقف فجأة، يختل طريق عربة رابعة، خامسة وسادسة.. في ثوانٍ يزدحم الطريق بعربات كثيرة، متداخلة. الفوضى تعم العالم، تسد الطريق، يتوسع الانسداد حتى يشمل الطرق المجاورة وتفرعاتها وشوارعها الجانبية ومنها الطرق المجاورة لها والمجاورة للمجاورة، يغزو كل طرق المدينة، كذرة تراب تتكثف عليها قطرة ماء، وقطرةٌ تجر أخرى حتى تُكَوِّن سحابةً مثقلةً بالأمطار وسحابةً تضم إلى سحابةٍ وينهمر المطر..

- أنت سرحت في إيه؟!

أفيق من شرودي لأجد العربة المخالفة وقد تخطتنا، عربتنا عادت لتنهب الطريق في سلاسة، السائق عاد للدندنة مع الست بصوت خافت..

- أبدا.. ولا حاجة.. أنا معاك .. أخباركم إيه؟
- والله.. الحمد لله..

لمحمود نصار نظرة مميزة، يحدق فيك بعيون مفتوحة ومقل واسعة من تحت عدسات نظارته في شفقة وتحد وعتاب..
رأيت بعينيه، مستني لعنته، لا خلاص..

أفكاره لا يحيط بها منطق أو يحجِّمها وعاء، محمود نفث في حياتي كشيطان، جاء بتعويذة وشر ليسعر لي الجحيم، محمود نبيٌ قد يملك إجابات، قد يمكّنني من النجاة والوصول والعبور والإفلات والخروج.
محمود نصار لا يكف عن ترديد عباراته عن الخراء، تدوي في أذنيّ صادمة، رنانة، مؤرقة، تبدد سكينتي.. العالم كله يعيش في خراء، يتغذى على خراء، فقط يبدع البشر في طريقة تمليحه حتى يستسيغون تناوله، الكل يبحث عن مبررات للعيش والمواصلة، عن ملح للخراء..
محمود برعونة وتعالٍ يدّعي أنه ملك نفسه، يبحث فيما يريد أن يبحث فيه، يقرأ فيما يريد أن يقرأه، يطور ما يريد أن يطوره، يفخر باستقلاله، يباهي بتفرده، لن ينشر أبدا في أكبر الدوريات وأهمها، لن يصبح اسمه ملء مسامع الأوساط العلمية، يرددونه كرقية، أبدا لن يسير على موضتهم، دائما سيعاقبونه بالتجاهل والحرمان..
يرفض انقياد أبحاثه لخططهم البحثية وتوجهاتهم، محمود يتهمهم بصنع نظريات كآلهة من حجر، يتعبدون في محرابها، يدفعون العلماء نحو إثبات صحة ما يريدون، يتجاهلون كل بحث جاء لينقدها ويفندها، يقودون العلم والمعرفة في الدرب الذي يرغبون ويخدم أغراضًا قد يحيط ببعضها ويخفى عنه

جلها، بدأ الأمر منذ قديم الأزل، منذ كان الملك يقدم الجائزة للعالم الذي يحل المعضلة التي يبتغي لها حلًا، ينقاد العلم لرغباته واحتياجاته، الملوك سطروا أولى صفحات كتب تاريخ العلوم، انتهى الأمر إلى المؤسسات التي تملك تحفيز العلماء للبحث فيما يريدون، خلق النظرية والنظرة التي يرغبون فيها، تارة بالجوائز وأخرى بالنشر..

الملك أعلن عن جائزة لمن يبرهن على ثبات كون نيوتن، تسابقوا لنيلها وإرضائه. برهنوا على ثبات الكون بالخطأ.

نظراته لي محيطة، ثاقبة، يلهث كفصامي وهو يقول في تأثر، ضاغطًا على حروف الكلمات بأنني وهو والجميع وحتى هم تملك أرواحنا الموضة، تجبرنا على السير في دروبها، لا نملك في تصريف أمورنا شيئا..

ينهي كل عباراته بتعليقٍ واحدٍ، "هذا هو الخراء يا صديقي"، بينك وبين نفسك تظن أنك عبقري، هذا هو الملح الذي يمكّنك من الحياة ومن تناول الخراء واستساغته، وأنا أدافع عن فشلي بأنها الموضة والتيار والدوامة، لن أسمح لها أبدا أن تبتلعني، هذا هو ملحي الذي أضيفه للخراء كي أتمكن من العيش وتناوله، كلنا نملّح الخراء، كلنا نأكله ونعيش على تناوله..

أستطيع أن أكشف حقيقته، قلقه وغربته، ارتعاده تحت قناع الثبات، يتظاهر بأنه يسيطر على العالم لكنه في قرار نفسه مهزوز، مرتعب، يدفع خشيته بالسخرية وادعاء المعرفة والتحكم.

يوشك أن يقضم أظافره، أن يتوقف قلبه، ينشر قلقه وروعه كأنفلونزا، يتسرب كعدوى لكل من خانه الحظ وسقط في طريقه، يبدد أماني ويهوي بي إلى بئر من جزع بلا قاع..

كنت ضحيته، غرس أنيابه كدراكولا في عنقي ومص دمي الدافئ، تركني أرتعد من الصدمة والبرد، امتلك روحي، أوهن من أن أعصاه أو أن أفارقه..

سائق التاكسي الذي حملني للمستشفى كان طاعنًا في السن، جلده مكرمش، أسمر، شاربه أبيض خفيف، ضئيل الجسد، لا يكف عن الكلام، نقل رأسه في عصبية بيني وبين الطريق..

- الواحد بقى بيشوف يا بيه حاجات لها العجب، كله كوم والسلعوة اللي فجأة هجمت على الناس، لا حول ولا قوة إلا بالله !... بيقولوا إنها نزلت م الجبل وناس بتتكلم على تعالب وديابة كمان.. بتخبط ع الباب زي البني آدمين وتخش تاكل كل اللي يقابلها، ولا اللي اتكتب علينا جديد، الفيران السعرانة اللي بتاكل ايدين ورجلين العيال الصغيرين والكبار أوي ف السن اللي مابيقدروش يتحركوا، ماشية تعض وتنهش ف الناس.. . بيني وبينك يا بيه أنا مش مصدق في إن الحاجات ده كده عادية... ما احنا عمرنا ما سمعنا عنها بالشكل ده .. دول جن .. أيوه جن .. جن متجسدين في صورة فيران وديابة .. واحد بلدياتي قالي إنه شاف حيوان زي اللي بيحكوا عليهم دول ولما استعاذ وقرا آية الكرسي

اختفى... آه والله زي ما باقول لك كده يا بيه.. بص بص .. شايف ابن الكلب اللي جاي عكسي هناك ده.. اسفوخص على أمك...... حاجة تفور الدم..

العربة تجري نحونا في عكس الاتجاه، في خيالي انبعث نفس المشهد الذي ثار في خاطري من قبل وأنا بصحبة حسين ونحن عائدين من المطار، رأيت عربتنا تنحرف لتتفادى العربة المخالفة، انحراف عربات أخرى، اختلال عجلة القيادة بين يدي سائقين آخرين، في ثوانٍ يزدحم الطريق، يتوسع الانسداد حتى يشمل الطرق المجاورة والمجاورة للمجاورة، يغزو كل طرق المدينة، ذرة تراب تتكثف عليها قطرة ماء ثم تعقبها قطرة فأخرى حتى تكون سحابة وغيمة مثقلة بالأمطار، سحابة تضم إلى سحابة أخرى وينهمر المطر، وبروق ورعود وحيوات تتفجر بالماء وسيول تجرف حيوات أخرى وموت وشيك..

ليلتي الأولى في القاهرة ملأها الأرق ووجع الرأس، جسدي منهك وجفناي ثقيلان، رغم ذلك يتمنع النوم، أستجديه ولا يجيء، كنت كالدائخ، أهوي وأهوي ولا أنام، أعزي الأمر إلى تغييري لفراشي، قلقي، ربما شغفي بهذه الزيارة، أحاول مهاتفة محمود نصار، هاتفه غير متاح، أجرب مرات بدأب، أريد أن ألقاه بشدة، لا يهمني كثيرا ما سأقوله له، لا يعنيني ما سيقوله تحديدا لكنني أشعر بالحاجة إلى لقياه، اختلاف التوقيت واختلال ساعتي الحيوية يحرمني النوم، أعصابي تالفة، أتقلب في الفراش، أغيّر من وضع جسدي، دائخٌ من الإعياء، لا يرحمني

النوم، أنهض، أجلس على حافة الفراش، أضيء النور، أفكر في القراءة، في الجلوس إلى الإنترنت، في تشغيل التلفاز،

حسين جهّز الشقة قبل وصولي بكل شيء، اختارها في هذه البقعة الهادئة الراقية من المعادي، الشوارع مزينة بالأشجار، الإضاءة خافتة، الليل ساكن، أشفق عليّ من أن أقيم في حي شعبي أو على أطراف منطقة (كشبرا)، هناك تهلكني الضوضاء على حد قوله، سخرت منه "ومن أين جئت بالأصل؟!" قبلت منطقه ولم أحاول التعقيب.
عليّ أن أستيقظ مبكرا، أبدأ يومي بزيارة الطبيب، طبيبي في أمريكا راسله، كان هذا شرطه ليسمح لي بالمغادرة، حسين وبعد أن أخبرته بمرضي تغير وجهه، ضغط على يدي ثم نظر في عيناي بتثبيت، أصر على أن يستبدل شقة المعادي بواحدة قريبة منه في شبرا، لكنني رفضت، أصررت على الرفض، كفاه تعبا في تصريف أمور حياتي إلى ذلك الحد (وكثّر خيره).

أوقن من أن محمود نصار يسخر مني في كل وقت، بل لعله يلقبني باسم لا أعرفه، ربما يلقبني بالقط السيامي الكبير، السمين، العاجز عن مواقعة فأرة، أو بالفرخة البيضاء الضخمة بالهرمونات الأنثوية، الابن المضلل المدلل للفقاعة العلمية، لا يفلت أحد من لسانه ولا تتفلت منه حادثة.
رأى في المؤتمر الذي عقدته جامعتي "ويست فيرجينيا" متحفًا للحمقى، المغيبين، يظنون انتفاخ رءوسهم وتلافيفها دليل ذكاء،

ما كان انتفاخها إلا تورمًا بالحماقة والتلافيف ما هي إلا تجاويف وفجوات.

يشير إلى البدل الأنيقة التي يرتديها البعض، أحذيتهم اللامعة، شعرهم المصفف بعناية، رابطات العنق الرفيعة على الموضة ثم يبتسم ويهمس في أذني، علماء ماركة "كازانوفا" و"كريستيان ديور"، علماء ما بعد الحداثة.
أشار إلى "أنطوني" بكرشه الضخم ووجهه المتورد والنساء يحطن به ويبتسمن ويبتسم، "عارف لو العالم فيه اتنين من طوني ده ، كان زمان مشكلة نسوية العلم اتحلت وماكانوش بتوع الفيمينيست هارونا بتنظريهم عن ذكورية العلم وعن تمييز المجتمع العلمي لصالح الرجالة ... ولا مطالباتهم إن العلم يبقى حلو كده وكيوت وحنين".
لا يترك عبارة لتشرد أو موقفًا ليمر في سلام أو شخصًا بلا تعليق.

الفكرة بزغت في رأسي فجأة، لم تطرق، لم تستأذن، لم تنوه، خرجت شبه مكتملة، جميلة، ساحرة، شغلت خاطري، خففت عني اليأس والمرض وبشرتني..
للمرة الأولى لا يعنيني كثيرا أن أستثمرها وأنجح بها، لا تهمني النتائج أو حتى كتابة ميثيدولوجي للبحث أو المعادلات، فقط أنا وهي، أختلي بها وتختلي بي..
فكرتي أبدع من نظرية "دارون" ومن ميكانيكا "نيوتن" ونظرية الكم والأوتار الفائقة ونسبية أينشتاين الخاصة والعامة،

تبدو فاتنة وبسيطة لدرجة تدفع للتساؤل والجنون، هي هناك طوال الوقت تعمل وتنصاع لها الحياة لكن لا يدركها أحد،

ربما حاولت يوما أن تغري أحدهم باستقصائها لكنها لم تفلح ولم يقدر عليها.
تداعبني كحلم، خيال بين الوعي واللاوعي، كنت عائدًا مرهقًا جدًا من جلسة العلاج الكيماوي، أسند رأسي إلى زجاج التاكسي الذي تكومت داخله، أرقب العربات تزحف من حولي، الشمس التي تميل للغروب من بعيد، اتصل بي ولداي وطمأنتهما، ميري كادت أن تتشاجر معي، تريد عنواني في مصر لتأتي إليّ، توعدتني بأنني إن بقيت على إصراري من حضورها ستعتبر أمرنا منتهيا، لن تعود لمحادثتي، حاولت استرضاءها بكل السبل بلا جدوى، أخبرتها أنني سأرتب لمجيئها، فقط تمنحني عدة أيام، رفضت أي تسويف، صوتي أوهن من المعتاد، حلقي جاف، جسدي همدان، مصطفى ابني أخبرني أنه سيأتيني قريبا، ابتسمت، أخبرتهم جميعا أن حسين صديقي أكثر من أخ، يرعاني وصحتي وأنني في تحسن.
أصوات آلات التنبيه تجتاحني، الهواء معبق برائحة الوقود المحروق، حرارة الجو لم تنكسر، الهواء راكد والزمن ثقيل.
العربات تكوّمت من حولي، بدت كأنها تقف متداخلة، متراكبة، متشابكة كبازل بلا حل، التكوم والانسداد يمتد من شارع لآخر، يوشك أن يملأ كل شوارع المدينة، يملأ حتى الطريق السريع الذي يحيط بها، يمتد ويتشعب ويتوغل حتى يصل إلى الطرق السريعة التي تصلها بالمدن الأخرى ومن محافظة لأخرى حتى

يعم كل بر مصر، كذرة تراب تكثفت عليها قطرة ماء، القطرة جذبت أخرى والأخرى جلبت أخرى،

حتى صارت سحابة ضخمة مثقلة بالماء، السحابة ضمت إلى سحابة حتى باتت سماء تملؤها الغيوم، بروق ورعود وسيول جارفة في كل أنحاء مصر.
أزفر في ضيق، سائق التاكسي أشار لي في استئذان أن يشعل سيجارته، مد نحوي يده بالعلبة فرددتها شاكرًا، الرجل يتأفف هو الآخر.

- أستغفر الله العظيم.. الواحد بيروح عمره واقف في إشارة ويقولك أزمة بنزين.. تقريبا كده البنزين اللي بنمونه بيتحرق نصه واحنا واقفين في طابور البنزين، ونصه التاني في إشارات المرور..

ضجيج آلات التنبيه يتصاعد، في البداية أستشعره منظمًا، صوت يأتي من بعيد ويتكرر في نظام، كصنبور ماء ترك ليقطر، القطرة تسقط عقب الأخرى لتبعث صوتًا منتظمًا، الصنبور انفتح قليلا فتعاقبت القطرات أسرع، الصوت يختلط وإن حافظ على بعض الإيقاع، القطرات تتزاحم، تتساقط، أصواتها تتداخل، تعم الفوضى، فوضى آلات التنبيه تغرقني، تكدر مزاجي المعتل بالأصل..
راديو السيارة على موجة قناة تذيع أغاني، تتخللها نشرات الأخبار، مرة تأتي كاملة وتارة يكتفون بعناوين الأخبار وأخرى يتلونها موجزة.. أُعلن عن سقوط خمسة قتلى في أحداث عنف على خلفية فتنة طائفية، انفجار أنبوب غاز دون خسائر

بالأرواح، انخفاض غير مسبوق لمؤشرات البورصة، انتشار محدود للكوليرا بمحافظة المنيا، هجوم للجراد على حلايب وشلاتين، إجراءات احترازية لمنع تقدمه داخل البلاد، إصابة شخصين بالملاريا، نفوق آلاف رءوس الماشية متأثرة بالحمى القلاعية، انخفاض الجنيه المصري أمام الدولار.

ارتجت العربة في قوة، لم تكد تتحرك بضعة سنتيمترات زحفًا في الزحام حتى بوغت السائق بالوقوف المفاجئ للعربة أمامه.

- أستغفر الله العظيم.. ربنا يسترها

نفث دخان سيجارته في ضيق وتأفف، أزبد بكلمات غير مفهومة، كان كمن يتشاجر مع كائنات غير مرئية، يحاور نفسه ويسب ويلعن، خفض من صوت راديو السيارة.

الفكرة رأيتها واضحة جدًا، كاملة جدًا، ولدت تامة وبسيطة، كومة من الرمال تسقط عليها حبة رمل عقب حبة.. حبة عقب حبة.. الحبة قد تنضم للبناء لكنها وفي لحظة قد تحدث انهيارًا رمليًا، يتواصل سقوط الحبة عقب الأخرى، الانهيارات في أغلبها بسيطة، بعدها ينعاد بناء الكومة وعلوها.. أحد الانهيارات عنيف، تتضاعف موجته، تنهار الكومة كلها، يتبدد شكلها، في حادثة ندر أن تحدث لكن زنادها نفس حبة الرمل الساقطة.

أخيرًا، أجاب محمود نصار على اتصالاتي، صوته مختلف، قضيت وبعد أن أجاب على الهاتف ليلة سعيدة، لا أرغب في النوم، جلست في شرفة المسكن أحدق في الفضاء المفتوح،

أعتقد أنني أسحب من طاقته، أو أملأ بطارياتي معتمدا على انطلاقات روحه غير المبررة أو المفهومة.

لأول مرة منذ أن كنت شابًا صغيرًا أتعمد محاربة النوم، أستمتع بتلك اللحظات من خدر النوم الذي يحاول التسلل ولا أُمكِّنه مني، نمت مكاني وصحوت على برد الفجر، انكمشت في نفسي ودخلت، ارتميت على الفراش وغرقت في النوم من جديد.

نظرت إلى البروفيسور الأمريكي في بلاهة نظرات جوفاء، حاولت أن أتحقق مما إذا كان يتندر عليّ أو يداعبني ويحاول أن يبدو خفيف الظل، كان صارمًا وجادًا ونبرة صوته واضحة، أذناي اللتان تحاولان أن تتقنا الإنجليزية بلكنتها الأمريكية لم تخطئا، كان يتحدث ببطء، يراعي قدراتي، يضغط على الجمل، يؤكد عليّ، بلاهتي استحالت لدهشة، لم أنطق بكلمة، فقط هززت رأسي دون أن أعي في موافقة على التنفيذ. أدور حول نصف العالم وأغترب وأفارق والديّ كي أبحث في تلك الأمور السخيفة التي بلا معنى، سألني أسئلة غريبة بلا جدوى في المنطق والتاريخ، عن آرائي السياسية، في اعتقاداتي الدينية، كيف يكون أستاذًا في الرياضيات ويجد الوقت والجهد ليتدخل في آرائي ويفتش فيما لا يفيد ولا طائل منه، سألني في تاريخ الرياضيات، ظروف ابتداع قواعدها، حدثني عن نيوتن وأزمة الجسم الثالث، عن حساب التفاضل والتكامل الذي أدخله وطوره وجذوره وجدواه، ما له وآرائي؟! ومالي وتلك العلوم

والمرويات والأساطير وأحاديث النميمة وإهدار الوقت وما لا يفيد.

اللعين لم يسألني في مسألة رياضياتية واحدة، لم يحاول أن يناقش فكرة بحثي أو حتى فكرته هو ورؤيته، اكتفى بجلسة من الحماقة والثرثرة التي لا تفيد، ترك كل ما أجيده وما جئت لدراسته وتحدث فيما أسماه فلسفة العلوم وتاريخها، ما لا يهمني ولا تطبيق له ولا فائدة من ورائه، هل يسخر مني؟!، هل يتعمد تعطيلي؟!، هل هو مجنون؟، من أولئك العلماء الذين تشخصهم القصص المصورة، لم يكن يحمل هيئتهم، كان رجلا طويلا، جسمه مفرود وشعره أبيض، عيناه غير جاحظتين، لا يرتدي نظارة بالأصل.
في مرات تالية جمعتني به، ناقشنا أطروحتي لنيل الدكتوراه في الرياضيات، بدا متحمسا لي، لم يذكر أي شيء عن حديثة السابق، كانت لوثة مرت به وذهبت لحالها، شطحة من شطحات العلماء غير المفهومة والتي سرعان ما يتجاوزونها وربما ينسونها تماما.
يوم استقررنا على الطرح الذي سنبحث فيه صافحني بحرارة وبعينين لامعتين تحدقان فيّ بفخر وسعادة، امتدح ذكائي وفكرتي كثيرا قبل أن تعاوده اللوثة.

- هل تعرف بقواعد المنطق الأولى التي وضعها الإغريق؟ هل تدرك كيف انبثقت الرياضيات من تلك القواعد؟ هل فكرت في مشكلة الجسم الثالث لنيوتن؟ هل تعرف كيف ابتدع حساب التفاضل والتكامل ليسهل

من عمله؟ هل تعرف إن كان "جاوس" قد تزوج أم لا؟
إن كان له أبناء أم لا؟، هل عانى من أزمات مالية؟.

ارتجفت من الحنق، كدت أصرخ فيه، ما كل هذا الهراء؟!
لكنني ألجمت لساني، سكت وهززت الرأس في إذعان، لم يبقَ
إلا علاقات الزواج والطلاق والأزمات النفسية وفلسفة الإغريق
لنناقشها، هل هذا حقا عالم؟! هل يشغل كرسي الرياضيات
بويست فيرجينيا؟ هل من المفروض أن أكون عبدا لحماقاته
وشطحاته لسنوات قادمة؟، هل عليّ أن أضيّع وقتا في تلك
التفاهات؟ هو رجل مخبول ما ذنبي أنا كي أعيش في دوامات
خبله؟!!
رغم ذلك، تحاملت على نفسي وبحثت على مضض، طالعت
كتب المنطق وبحثت عن العناوين النادرة لذلك العلم الجديد
الصاعد الخاص بتاريخ العلوم، مدّني هو بكتب كثيرة الأوراق
واللغط في فلسفة العلوم وأخرى تتحدث عن مبدعي القوانين.
حتى الآن لا أعرف كيف زلت قدمي، كيف أدمنت ذلك النوع
من العلوم، كنت قرويًّا جلفا، ساذجا وذكيا، مغطى بالطين،
بشرتي جافة وقاسية وكان يعمدني هو، ينظف أدراني
ويعطرني ويرفع عن عينيّ الغشاوة، يريدني أن أنفذ للب
الأمور، لا أن أقنع بالقشور، أفتش في الأصل والأعمدة
وقصص الخلق، ساعتها ربما أرى كإله وأدمر كشيطان وأخلق
كرب، أبني وأفكك وأقصف وأستمتع.
كلما رآني منغمسا في بحيرة الوحل التي تركني لأغرق فيها
تهلل وجهه، اتسعت ابتسامته ورمى لي حبل نجاة عقب الآخر،

ساعدني على النهوض كلما تعثرت، سار أمامي مشجعًا ومرشدًا.

أستاذي شاخ ومات في صمت، حضرت جنازته وبكيت، ثم واصلت حياتي.
الآن أشعر أني كنت أسيره، صحيح أنه حررني من أسر البساطة والتفاهة والرؤى الأولية لكنني عشت عمري كله أسير نظرته ومركزية أفكاره، أفكر بمنطقه، أبحث على طريقته، يضحك كثيرا مني ومن حيرتي، يضحك عليّ، يضحك في حنو وفي سخرية وفي انتشاء، يبكي وينتحب، يربت عليّ، أنا مجنون، الرجل قد مات لكنني مؤخرا أستمع لقهقهاته هنا في داخل أذنيّ، يضحك من حيرتي ومما وصلت إليه، يضحك بنهنهات وبصوت باك مشفق أو مستهزئ.

انفجار ضخم يهز وسط القاهرة، سقوط خمسة قتلى وعشرات الجرحى نتيجة انفجار قنبلة، على الأغلب فجّر انتحاري أو جهادي أو ما شاء الإعلام أن يمنحه من الألقاب نفسه في موكب رئيس الوزراء والذي أعلن التلفزيون الرسمي عن نقله سليما معافى إلى مستشفى المعادي العسكري.
الفكرة أضاءت في رأسي مع رسوم ومنحنيات كثيرة، معادلات لأنظمة خطية ولا خطية.
استغرقت أياما من العمل شبه المتواصل، أجلس لحاسوبي بالساعات، أبدّل وأضيف، تتثاقل عيناي إعياءً، تقريبا لا آكل أو أشرب أو أجيب على الهاتف، حسين جاءني مرة هلِعًا بوجه

شاحبٍ وأنفاسٍ لاهثةٍ وطرقٍ متواصلٍ على الباب، رددت على الطرقات العنيفة في غضب، هرعت نحو باب ينتفض، أحدهم

يحاول أن يدفعه عنوة، يخبطه بجسده، صرخت في فزع "مين؟!".

كان حسين بكتف موجوع وأنفاس شقيانة، إلى جواره البواب بوجه ممتقع وعينين زائغتين، قلقين عليّ، لم أغادر الشقة لأيام.

سيكون كبرامج التنبؤ بالطقس، أكتبه بمُدخلاتٍ كثيرة، توشك أن تكون لا نهائية، أشغِّل الحاسوب لساعات ليعمل عليها ويحللها وأحصل على نتائج.

خطأٌ بسيطٌ في مدخلات برامج تحليل الطقس، يتراكم لينتج عنه تباينات كبيرة على المدى الطويل، برنامجي سيكون بنفس العيب، فقط ستكون تنبؤاته دقيقة لفترات زمنية قصيرة، برنامج يعالج أحداثا شديدة الديناميكية سريعة التغير.

برنامجي أعظم ما فكر فيه مخ بشري، يقهر كل القواعد ويهد كل الحدود، برنامجي يبشر بنظرية عامة تترسخ، فتح في دراسة علوم الاجتماع والنفس والنظريات السياسية والنمط البشري والأنثروبولوجي وكل ما اعتقدوا في أنه لا يخضع لقوانين واضحة.

برنامجي كبلورة سحرية وعين جني تنظر فيها لترى وتعرف ما سيحدث وتكسر كل قواعد الفيزياء.

كل نتيجة بداية لبيانات جديدة ومدخلات جديدة ونتائج جديدة، أعدّل، أحسّن، وأنظر عبر الحجاب.

مستحيل أن أتنبأ بحركة التاريخ والزمن، أقرأ العالم وأرى المستقبل والإنسان، التغيرات والأحداث بلا حصر، توشك أن تكون بلا نهاية والخيارات غير محدودة، والعقل والعاطفة لا استقرار لهما، في تقلبات دائمة والأهواء بلا منطق والإرادة البشرية تغير المقادير..

كل شيء من حولي متلاطم، العالم وكأنه على حافة الشواش والفوضى... ولو ... كل ما يُظن عشوائيته خاضع لنمط وقانون رياضياتي، كل ظاهرة في العالم تتبع نظاما حتى تصل إلى نقطة حرجة، بعدها يحدث الشواش والفوضى، كالطقس، كالبورصة، كحركة قشرة الأرض ونشاط البراكين والزلازل، كتيار ماء يندفع منتظما، تعترض مساره صخرة، الماء يتكسر على سطح الصخرة، يتخذ تشكيلا انسيابيًا بديعًا، إن زدنا من سرعة الماء تبزغ دوامات وتتلاشى بلا سبب أو نظام، فيما قد تظهر وكأنها فوضى شاملة، لكنها وفي الحقيقة تخضع لنفس القانون الأولي البسيط، بكثير من الجهد يمكن التنبؤ بها واستقراؤها وحساب كل إحداثياتها.

كطقس هادئ تتراكم فيه التغيرات بنفس القوانين الأولية العادية للفيزياء والرياضيات حتى تتلبد السماء بالغيوم، تهب أعاصير فتاكة وسيول.. كانزلاقات خفيفة في قشرة الأرض تتراكم حتى تنفجر في زلزال عنيف.. كمجاعات ولا استقرار وانقراضات تبدو عشوائية بلا نمط أو قانون وفجائية وهي ليست كذلك ..

أملك أن أقرأ التراكم، أن أعرف مستقبلكم، أن أبشر بقيامتكم وأحدّث باضمحلال عالمكم أو أبشر بتعافيكم وازدهار دولتكم،

سأعرف بانهيار مجتمعكم وكذلك بشفائه، سأعرف فقط، لن أخبركم لتعاملونني كرسولٍ ونبيٍ أو كمجنونٍ وشيطان، لا صبر لي على جهالتكم وعنتكم، فقط أضيّع وقتي وما بقى من عمري أو أقصف وأتسلى بالفرجة عليكم.

صوت الارتطام الشديد قطع عليّ أفكاري، أنتفض في تساؤل، سائق التاكسي الذي أستقله التفت معي بشكل سريع، لا إرادي نحو مصدر الصوت، على البعد عربة ملاكي ارتطمت بأخرى، سائق العربة التي بالأمام نزل محتدًا، ثائرًا، يخبط على سطح العربة التي أصابته من الخلف، جذب باب قائدها في عنف، يكاد يخلعه في يده، يدفعه في صدره، المضروب ينزع نفسه ويدفع ضاربه في قوة بعيدا، يركله ليسقط أرضًا، ينهض ويجري نحو سيارته، يلقي بنفسه إلى الداخل، يبحث عن شيء في توتر قبل أن يخرج بطبنجة، تلمع تحت الشمس، يشد أجزاءها ويصرخ.

- جرى إيه يا ابن الكلب.. في إيه؟! أنت مش عارف أنا مين؟!.. أنت وقعت ولا حدش سمى عليك يا ابن الوسخة..

ضرب طلقة في الهواء وهو يدور مهددًا، متوعدًا الجميع، ذراعاه مرفوعان لأعلى، فوهة السلاح موجهة نحو السماء، قائد العربة المصدومة هرول زاحفًا مبتعدًا، قفز إلى داخل سيارته منكمشا على نفسه، قادها مبتعدا، حامل السلاح دس الطبنجة في حزامه، سار متمهلاً نحو عربته، أدارها كذلك وانطلق.

حتى تنبؤات الطقس في ظروف معينة تبدو غير دقيقة، المدخلات من التباين لدرجة يصعب معها الحصول على تنبؤ دقيق ولو لفترة زمنية قصيرة، ساعتها يخرج خبراء الأرصاد بعبارات مبهمة عن عدم الاستقرار وتوالي فصول السنة الأربعة، ربما في اليوم الواحد.
علماء الاجتماع -بكل منجزهم وتفانيهم في التحليل وغرورهم أحيانًا وعزتهم- بقوا قابعين عند حدود المعادلات الخطية، العلاقات البسيطة، تنبؤهم محدود، جل أعمالهم تالية، خيالهم محدود بحدود تجاربهم، لا يملكون انفتاح الرياضيات وزخمها وصدقها، من حاول فيهم التنظير لحالات من شواش وفوضى استبقى نفس المعادلات الخطية العادية الباهتة، لا أحد أدرك تلك الحالة التي يكون فيها العالم على شفا الانزلاق، لحظة مفتوحة على كل احتمال، لحظة تستحيل فيها تيارات الحمل العادية في الماء الساخن إلى دوامات وفقاعات وغليان وانفجار وكأنها بلا سبب أو نظام أو نمط، لحظة حساسة جدا لكل مدخل، لحظة رياضياتية بامتياز.

محمود نصار استقبلني في مكتبه بالجامعة، رحب بي وبش في وجهي.

- يا أهلا يا دكتور، نورت مصر.. أيوه كده يا راجل اظهر خلينا نشوفك ونستفيد بيك هنا بقى .. إيه رأيك لو نعمل على شرفك كام محاضرة كده ولقاء بالطلبة؟
- لأ.. اعفيني.. أنا جاي بالأساس أهدي أعصابي وأتعالج مش حمل مؤتمرات ومحاضرات..

- ماينفعش يا دكتور..
- طب قدام شوية .. أرتاح بس كام يوم.
- براحتك.. وخسارة التأجيل.. بس أنا مش هانسى.

محمود نصار بدا مختلفًا، مخيبًا لآمالي، صامتاً، لأول مرة أشعر أنني أنا المتحدث، أستجدي منه الكلمات، يتحدث كجذوةٍ مطفية، في وهنٍ وملل، بلا تألقٍ أو لمعان، باله مشغول، أحس بعينيّ المتسائلتين والمحطات الكثيرة التي يقف عندها الكلام وكأنه انتهى للأبد، حاول أن يفتح أي مواضيع، بدت عباراته بلا معنى أو هدف.

- بتشوف أفلام يا دكتور أو بتقرا روايات؟
- الأفلام مش متابعها أوي والروايات مابحبهاش..
- ومين سمعك؟..
- مالك يا محمود؟ عمري ما شفتك كده!
- أبدا ولا حاجة.. شوية هموم ومشاكل..
- محمود نصار.. عنده هموم ومشاكل؟!.. سجل يا تاريخ!

ابتسم على استحياء.

- الظاهر كده إن الواحد كان حاسبها غلط من الأول.. يعني أنت عارف.. مش عارف.. بص.. مش عارف أقول ايه.. مش من عادتي أتكلم عن نفسي.

ابتسم في سخرية وبانكسار

- الظاهر الواحد اليومين دول هيبتدي يعمل حاجات كتير ماكنش متعود عليها.. لأ وأنا اللي كنت باتريق على اللي مالهمش سيرة غير يشتكوا.. تعرف إن امبارح القبة.. قبة الجامعة .. وقعت؟! أكيد شفتها وأنت داخل النهارده.. وقعت كده مرة واحدة ومن غير مقدمات.. لا زلزال ولا إعصار ولا أي حاجة.. انا باهذي مش كده؟! .. اعذرني..

أحترم صمته الطويل، قبل أن يقطعه بحديث بدا وكأنه يخاطب نفسه به

- حياتي كلها عشت أتريق على الناس اللي مش عارفة تعيش.. اللي بيدور على الفلوس واللي ع الشهرة واللي واللي .. أنا كنت حاسم قراري مع نفسي م الأول بإن الدنيا ماتستاهلش.. تتعاش بس علشان أنبسط وأعمل بس اللي ف دماغي وأربي عيالي .. يتربوا أحسن تربية وبأحسن أخلاق.. يتربوا برضه على إن الدنيا ماتستاهلش وعلى إنهم يتعلموا وينبسطوا وطول سكتهم يتريقوا عليها وعلى خلق الله.. الظاهر الواحد كان حاسبها غلط والظاهر كده كده مافيش فايدة.. اهتميت بيها ولا اديتها بالجزمة.. كله محصل بعضه.. هوا أنا يمكن قصرت.. ما اهتمتش أبقى غني أو أعمل حتى اسم العيال تتسند عليه، ضارب الدنيا صرمة قديمة.. ودلوقت كبروا فلقوا مافيش.. ماعرفتش أربي.. الواد ماطلعش زيي.. الدنيا ف وسط عينيه ويمكن حقه .. ويمكن ده هوا الصح وأنا اللي غلط.. أنا وابني

> نتخانق؟! ويوصل بيه الجنان إنه يسيب البيت ويوصل بيا الغضب إني أطرده.. والداهية السودا إني اكتشفت إني مش عارف أنا عايش مع مين.. حتى بنتي.. بنتي أنا.. بنتي يطلع منها كل ده؟!..

دوماً البداية مجهولة وغير معروفة، كالقشة ترميها في غير اعتناء على ظهر بعير مثقل بالأحمال فتكسره، مدخلٌ بسيطٌ وبلا قيمة، شديد الضآلة، يضاف للمعادلة، فيصيب أرقامها بالجنون وتتضاعف بطريقة لا خطية، لا يمكن استقراؤها.
كخفقة جناح فراشة في قارة تكون السبب في هبوب إعصارٍ مدمرٍ بقارة أخرى.
المتداول لما حدث بالمسجد في إمبابة، أنه أُذِن لصلاة الجماعة وتقدم اثنان طلبا للإمامة، اثنان من أهل المنطقة اعتادا تداول الإمامة فيما بينهما، في كل مرة يتنحى أحدهما للآخر أو يقدمه ولو بشكل مجامل. الاثنان أصرا على استحواذ القبلة، في البداية دفع كل منها الآخر بكتفه في رفق، ثم نظر أحدهما إلى الآخر شذرًا، جزّ أحدهما على أسنانه، استجمع أحدهما قوته ودفع الآخر في عنف بكتفه، أطاح به، الساقط نهض، قفز على خصمه.
لا أحد يعلم بالتفصيل كيف اندلع التوتر بينهما على مدار أيام، ازداد التوتر بين العائلتين، كل منهما أقسم أن الإمامة والإيمان في عائلته، هو الأحق والله أقرب، خوّن الآخر وأقسم على نفاقه.

أيديهم تضرب وبغير وعي في كل اتجاه، تصيب كل ما تطال، أصوات حشرجات تنبعث منهما، محاولات الفصل استحالت إلى مشاركة في القتال، البعض انكسر سنه أو خرج بعرجةٍ وجلبابٍ أو قميصٍ ممزق وشفة نازفة، جروح ودماء متناثرة على سجاد المسجد، رءوس نازفة وعيون مصابة أو مصفاة.

حتى عندما صافحت محمود وقبل أن أنصرف كانت يده مثلجة وبلا حياة أو توتر في عضلاتها، مرتخية وضعيفة وميتة، محمود لم يحاصرني كعادته بأسئلته وإلحاحه، يضايقني وينال مني بتعليقاته، يعابثني ويخترقني ليخرج بإجابات لا أعيها أنا ذاتي عن نفسي، أتعرف عليّ من خلاله، يلقي بالكلمات وكأنها واجب ما منه بد، لا يهتم بشيء، انتظرت حديثا مطولُا ومشوقُا، أنتشي به، أنشغل به وأخفف عني، لم يكلف نفسه حتى مشقة توصيلي لباب المكتب، نهض وصافح ولم يحاول استبقائي ولو بعبارة مجاملة لا تعني شيئا، لا أكاد أغلق الباب من خلفي حتى استمعت لصوت جسد ينحط مصطدما بالكرسي وربما زفرةً لم أتبينها جيدًا.

(5)

أنا أخاف ... أنا حي ...
ربما كانت أول مشاعر أدركها عن نفسي منذ زمن، يمكنني أن أفرح ، أن أبكي ، أندهش أو أيأس أو أتوقف عن مشروعي الغبي أو حتى أنتحر.
لأول مرة منذ زمن أستشعر أن قلبي به بعض الحرارة، يملك أن يحب ويكره، يرفض ويقبل، لا يخفق وكفى، يملك أن يغير وأن يتغير، أن يكون وأن لا يكون، لست كسيزيف أدفع الصخرة بلا وصول، بإمكاني أن أفلتها متى أردت، أن أقفز مبتعدا عن طريق سقوطها أو أن أتركها لتسحق جسدي، لكن بإرادة قلبي الحي أستطيع أن أتوقف متى شئت.
صوت الطلقات كان عاليًا جدًا وطاغيًا، خمس أو ست طلقات وربما سبع انطلقن في تعاقبٍ سريع، لوهلة شعرت بالصمم، ارتعدت من الفزع والمجهول، جاء الصوت من خلفي، قبالتي جلس حسين ومرتضى، حسين تراجع بكرسيه، كرسيه انقلب بينما وقف هو نصف وقفة ذاهلًا، عيناه مفتوحتان على اتساعهما، يحدق فيما هو خلفي، مرتضى ارتمى على الأرض، في لحظة كان ممددًا، ذراعاه يحيطان برأسه، يحميها، عيناه دفنهما بين كفيه، فخذاه مضمومان على بطنه.
استدرت بحركةٍ لا إرادية، المعلم إبراهيم مرمي على الكرسي، على صدره وبطنه بقعتان حمراوان آخذتان في الاتساع، صوت عربة تنطلق بأقصى سرعة لها وصرير العجلات، لم أميز أي صوت في استغاثات النجدة والصراخ، عربة انطلقت

في سرعة في أعقاب العربة الفارة، صوت زاعق يهتف " اجري وراه .. أيوه اجري .. اوعى يفلت".
عندما دققت النظر، أدركت أن أحد الزبائن قد أصيب برصاصة في ساعده، أحد الأهرام أصدقاء المعلم إبراهيم كان من نصيبه رصاصة في ذراعه.
في البداية ظننت صوت الطلقات فرقعة ألعاب نارية، بارودًا أو صواريخ يتلهى بها الأطفال أو (شريط حرب أطاليا)، رأيت الصدمة والذهول في وجه حسين، نظرات الرعب والترقب التي سارع مرتضى بدفنها مع عينيه بين كفيه، قبل أن أستدير لأقلّب وجهي في المقهى مستطلعا الأمر، كان القلق والتوتر قد تملكا مني، لوهلة لم أستوعب مشهد الدم والوجع والعرق على وجه المعلم إبراهيم، الفوضى التي ضربت المكان فجأة، صوت الأكواب وهي تصطدم بالأرض، منضدة أو اثنتان تنقلبان، صبي المعلم إبراهيم وهو ينحني عليه، أقدامه لا تكاد تقوى على حمله، مشتت بين الاستماع إلى همسه وأنّاته وبين تفكيره في الجري إلى الخارج والصراخ طلبا للنجدة والإسعاف.
مطلق النيران ترجل من سيارة محركها دائر، تقدم من باب المقهى، صوّب مسدسه وأطلق الرصاص ثم هرع نحو السيارة، قائدها انطلق بها بأقصى سرعة، يسابق أية ردة فعل، أي سلاح قد يكون حاضرا بالصدفة ويخرجه صاحبه لرد الضربة، يسابق أشباح الخوف والانتقام.

في البداية، لم تنتابني أية مشاعر، أتأمل المشهد بقليل من التمعن والتفكير، بقعة الدم الآخذة في الاتساع، المعلم إبراهيم بكل تجبره وضخامته مُكَوَّم على الكرسي بلا حول، القفزة التي شملت كل المقهى، هروب البعض، التصاق البعض الآخر بالمناضد والكراسي والحوائط والأرض، انهيار البعض، التفاف البعض حول المعلم، في مخيلتي رأيت الطبنجة باردة كليل، ضخمة، يخبطها الزناد فينبعث منها الشرر ويخرج المقذوف ويرتمي الفارغ على الجانب.
الرصاصات كانت قريبة جدا، مطلق النيران ضغط الزناد في سرعة بنصف تصويب، رصاصاته الطائشة أكثر من تلك التي أصابت هدفها، يده مرتعشة، باله يحثه على سرعة الفرار.
لا أهتم للموت، على العكس، ذكر الموت بخطواته المقتربة مني تزيد من إحساسي بعبثية ما عشته، مللي من كل ما هو آت، أستقبل الموت بذراعين مفتوحين وبابتسامة ساخرة فاترة، أستقبله بنفس مشاعري التي يمكن أن أستقبل بها أي خبر أو حادثة، جائزة كبرى في الرياضيات أو شلل رباعي أو حرب كونية أو إصابتي بالسرطان.
لكنني فجأة أرتد إنسانًا عاديًا، هكذا شعرت، الرصاصات كان من الممكن أن تصيبني، رصاصة طائشة أو شظية مرتدة من حائط كان من الممكن أن تخترق قلبي وتصفي دمي.
أرتعد، اكتشافاتي عن نفسي التي بين جنبيّ صادمة، ظننت أني أجهلها لأنني لم أهتم بالتودد والتعرف إليها طوال سنوات، شغلتني الحياة والبحث، أسرق دقائق من أجل متعة سريعة،

أتخفف فيها من كل تعب الأسبوع، إجازة أقضيها مرتاحًا أو في نزهة، أتسامر مع زوجتي أو أداعب ابنيّ، أرقص، أشاهد أفلام، أستمع للموسيقى، أقلّب في الأخبار، أسهر وأخرج عن النمط في سعادة وجنون.
السرطان أتاح لي فرصة اكتشافها، عرفت أني أنهكتها، جل ما فعلته في حياتي فعلته بلا شغف، بداية تسلمني لبداية لنهاية لبداية وأنا تائه ومفقود وسط كل هذه الحلقات والدوائر، صدمتني حقيقة أن آخر فرح أو حزن من القلب كان في شبابي، كل ما ظننته أحاسيس بعد ذلك لم يكن حقيقيا، عرفت أن لا شفاء لمشاعري المتبلدة تلك، انصياعي لتيار الحياة كغريق في نهر، يتمسك بجذع شجرة، يستسلم لتيار يقوده لشلال، سيودي بحياتي.
الآن أدرك أن كل ما ظننته عن نفسي -بعد تقصي أحوالها- لم يكن حقيقيًا كذلك، هناك وفي عمق سحيق مني مازالت بذرة بشرية على الفطرة، ترتعد للموت، الموت الحقيقي الذي يضرب بمنجله، يأتي أسودَ، مرعبًا، باردًا، قابضًا، عابسًا، موتٌ لا يحذر، لا يعابث، لا يبعث رسلًا، يتنزل فجأة جاثمًا وحاسمًا، يقبض ويسحب الروح، يغرس مخالبه، يطالع بوجه مفزع، يجمد الدماء، يوقف الشعر، يرعد الفرائص، فلا تقدر رجلي على حملي، أهلك، قلبي يوشك أن يتوقف عن الخفقان، لا أفكر في شيء سوى النجاة، أتحامل على نفسي، أحاول الزحف خارجا، أتشبث بحسين ومرتضى أهرع نحو الخارج، على صدري تجثم صخرة، في حلقي انسداد، عيناي زائغتان،

لعابي جاف، مفاصلي لا تقدر على حملي تئن من التعب والخوف.
بعدما ابتعدت تنفست في عمق كغريق وصل إلى الشاطئ، نبضات قلبي دقات عالية، سريعة وعنيفة، أفلت من موتٍ محقق، كُتِبَ لي عمرا جديدا، أتحسس نفسي غير مصدق، أتفحصني، أقلّب نظري فيّ، أنظر بعينين متسائلتين نحو مرتضى وحسين، اصطحباني معهما لشرب عصير يرطب ويخفف من وقع الصدمة التي وجداني عليها، كانا أكثر صلابة وتماسكا مني، كنت شاحبًا كميت، ضعيفًا ومرتجفًا، لا أقوى حتى على السير، أريد أن أنصرف، أصرَّا على اصطحابي، كانا يتندران عليّ وأنا لا أهتم، أجرع العصير في صعوبة، بينما كانا يتسامران في أي مواضيع عادية وكأن شيئا لم يحدث، أريد أن أنصرف ويصران على استكمال السهرة في مكان آخر، أُصر على الانصراف، أريد أن أختلي بنفسي، أريد أن أمدد جسدي وأرتاح، أعدهما بلقاء في الغد.

- طب هنوقف لك تاكسي..

يسيران معي حتى الشارع العمومي.

- بس متوقع .. واحد زي المعلم إبراهيم بكل علاقاته المشبوهة... تعرف إنه لسه امبارح واخد تلاتين ألف وجايب عربية الواد خالد ابن عبد النبي اللي اتسرقت منه.. ده غير إنه لغاية دلوقت – ورغم إنه طلع على المعاش – شغال مخبر، تلاقي حد من العيال الحرامية ولا الشمامين حب ينتقم منه ولا يمكن عيل مش سالك

اتجرح ف فلوس كتيرة منه وحب ينتقم.. اللي زي ده اعداؤه آلافات.

- ربنا يستر علينا.
- ده غير إنها ممكن تكون خناقة على السلطة والصلاحيات، حرامية ومخبرين في بعض وبيخلصوا من بعض.. حد عارف؟! ربنا ياخدهم كلهم ..

أمضيت ليلة طويلة من القلق والأرق والترقب واستجداء النوم بلا فائدة.

أريد أن أهاتف ولديّ، أضغط أرقام الاتصال بهما وأنا أكاد أبكي، سأتوسل لهما هذه المرة أن يأتياني، سأطلبهما في رجاء، لا تتركاني لأموت وحدي، الغبي يسوّف، لا يعرف حجم الأزمة التي أمر بها، سيحاول أن يأتيني في خلال أسبوع، فقط يحتاج بعض الوقت ليرتب أموره، الآخر أحمق، يحاول أن يقنعني بالعودة، حسنًا سيأتيني لكن على أن يعود بي، لأول مرة في كل عمري أستشعر مثل هذه الوحدة، وحيدٌ في العالم بلا رفيق، ماتت الزوجة، الأبناء بعيدون، فقدت والديّ في رعونة، حتى ذكراهما لا أملك استحضارها دون ألم وخوف وتذكير بتقصيري.

الخطابات المطولة التي كنت أتبادلها مع أختي أخذت في التناقص حتى صارت إلى عباراتٍ مقتضبة وتحيات بلا معنى، باتت كموجز للأخبار، كل أسبوع أجلس إلى مكتبي، أخط على الورقة بعد السلام والتحية والأشواق والتمنيات بعض ما حدث

لي خلال الأسبوع المنقضي، نتف مختصرة ومبتورة من حياتي، حتى الأخبار أصبحت أفلترها، أكتفي بإعلامها

بالأحداث الكبرى في حياتي، إنجابي، مرض زوجتي، وفاتها، حصولي على الدكتوراه، فوزي بوظيفة بالجامعة، الإعصار الذي ضرب ولايتي، حادثة منجم الفحم القريب من مدينتي، الانهيار الذي حدث والسماء المضببة بذرات الكربون.
لم أنقطع عن الكتابة ولم تنقطع هي، استبقينا الخيط الرفيع للأخوة، نكتب بروتينيةٍ، ربما حفاظًا على ذكرى والدينا، نخشى انفصام رابطة الدم، عالمانا يتباعدان، يكتفي كل منا بإرسال إشارات خافتة ليخبر الآخر أنه مازال يتنفس، لازلت أحتفظ بصورة قديمة تجمعنا على دراجة صغيرة بأربع عجلات، كانت تجلس على الكرسي خلفي وتضحك ضحكة بعرض الكون، ضوء الفلاش يلمع في عينيها، يداها تقبضان على ملابسي، تحضنني، تأتمنني على سلامتها.
أذكر يوم التحقت بالمدرسة لأول مرة، كيف كنت أجري بين الحصص من فصلي إلى فصلها لأطمئن عليها، كيف كانت تتشبث بي، التصقت بي وأصرت على أن أبقى معها أو أن أصطحبها معي إلى فصلي، كأبٍ حازم قلت وبلهجة صارمة "ماينفعش، أنتِ تفضلي هنا وأنا هاطلع فوق وهابقى آجي لك كل شوية". لمحت دموعًا تتجمع في مآقيها ونظرة إذعان وألم ورجاء، نظرة منكسرة وصاغرة، ربت عليها، ارتاحت لي، أجلستها وجلست هي عن غير اقتناع، عيناها معلقتان بي وأنا أجري عائدا لفصلي.

لاحظت الجفوة وهي تتسع، الاهتمامات وهي تتباعد، المشترك وهو يتضاءل، لم أحرك ساكنا، اكتفيت بتلك الكتابة التلغرافية، الواجب المؤلم.
فقط أبناؤنا استطاعوا أن يجعلوا لخطاباتنا معنى، ولداي وابناها وبنتاها أعجبتهم فكرة التراسل، يشترون أوراقا خاصة ملونة، يجمعون الطوابع، يكتبون عن كل شيء، عن مدارسهم واختلاف مجتمعاتهم، منتشين بلذة التواصل والمعرفة والكشف والفضول، يكتبون عن الأرجوحة، عن مباراة كرة القدم، الراكبي، السلة، أستاذ العلوم وعن الإستنسل والنباتات، أغاني محمد منير، أنوشكا، أنغام، الروك، مايكل جاكسون، الطباعة، رحلاتهم، قراءاتهم، نزهاتهم، المدرسة والمكتبة العامة، سقطاتهم، إصاباتهم، بعثوا الحياة فينا وفي مراسلاتنا لبرهة قبل أن يكبروا وتفترق سبلهم ويكفون عن التراسل لتبقى فقط تلك العبارات المبتورة والخطابات الفارغة والجمل المقتضبة الميتة بيني وبين أختي.
وصلت مصر ولم أفكر في زيارتها، أخشى لقاءها، ربما لن أتعرفها ولن تتعرفني، حتى الهيكل الشكلي المزعوم الواهي الذي صنعناه بتواصلنا الفاتر ربما ينهار مع أول مصافحة والتقاء للعيون.
لا أحب اللوم، على الأغلب لن يحدّث به لسانها لكن قلبها سيفعل، أخوها الوحيد وبعد موت الأب والأم تركها بمفردها في خضم بحور الحياة، نواتها وتلاطم أمواجها.

كثيرا ما فكرت فيها، تمنيت لو أعود للحديث معها، استجداء غفرانها، لكنني أبدا لم أملك شجاعة أن أفعل، أواجه وأعترف وأنال عقابي، يوما بعد يوم أركن لما أنا فيه، أتأقلم مع الهجر، يصبح الوصل أصعب، فقط أجتر الذكريات التي اجتهدت في جعلها مؤلمة، أشرد مع خيالات المصالحة ورجوع المياه لمجاريها وكفى.
سأموت في شقتي هذه في المعادي وحيدا، سأموت عطشا أرغب في شربة ماء تروي ظمأ الموت فلا أجد من يمد يده لي بها. سأُترَك حتى أتعفن، أتحلل، يتشوه وجهي، تنتفخ بطني، تنفذ رائحتي، بعد أيامٍ طالت أو قصرت سيقتحم حسين عليّ الشقة بعد أن تؤرقه غيبتي الطويلة، سيقيم سرادقًا لن يحضره أحد، سيرسل لابنيّ اللذين سيأتيان بعد فوات الأوان.
أحتاج إليكما، لأول مرة في عمري أقولها، أمام بكائي انكسرا، سيحضران، فقط أمنحهما أياما قليلة ليرتبا كل شيء، يحاولان استمالتي للعودة، لا أستطيع، يريدان سببًا منطقيًا للبقاء في مصر وأنا لا أملك واحدًا، أنا في منتصف شيء وعلي أن أتمه، أنا ذاتي لا أعرف كنه ذلك الشيء، معنى أو جدوى ما أبحث فيه لكنني مغرم به وفي منتصفه ولا أستطيع المغادرة، I am stuck!
أريد ميري لكنني لا أقدر على مهاتفتها، من نبرة صوتي ستعرف كل شيء عني، ستعلم بما في نفسي وستصر على الحضور، أحتاجها إلى جواري، الوحيدة التي بمقدورها أن تشاركني لكنها أوهن وأضعف من أن تتحمل، سيثقل ظهري بقلقي وقلقها، تجاهلت مكالمتين منها، أخشى أن أرد عليها.

قبل ضرب النار في القهوة بدقائق كان محروس وأيمن قد غادرانا، التففنا جميعا حول الطقطوقة والطاولة والقواشيط، أسندت ظهري للكرسي الخشبي العتيق، رجعت به عن محيط الطقطوقة، حسين وأيمن يرصان القواشيط ليلعبا دورا جديدا، كنت قد فزت على مرتضى ومحروس ثم انهزمت لأيمن.

- مالك يا محروس؟! مش فورمة أنت النهارده.. قال مرتضى.
- أبدا أنا زي الفل..

مرتضى قدم له سيجارة، أحاط يده بشعلة الولاعة واقترب باللهب من طرف السيجارة حتى اشتعلت.

- يا عم فك.. محدش واخد منها حاجة، وأنت يا دكتور مش ناوي تجرب بقى السجاير وتسيبك من الشيشة شوية ؟
- ماترزلش ع الدكتور يا مرتضى. رد حسين.

محروس ابن نفس الشارع الذي يضم المقهى، يعمل بمكتب الصحة، لا عمل له غير تسجيل المواليد والوفيات في دفاتره، استخراج شهادات الميلاد والوفاة.

- يا سيدنا فك بقى ونزل طاجن ستك.. إيه النهارده الوفيات كانوا أكتر من المواليد ولا إيه؟
- والنبي بلاش تريقة يا مرتضى.. أنا كويس.

محروس يدّعي أنه السبب في جل الأسماء التي تطلق على أبناء إدارته، موضة الأسماء تخرج من عنده، عندما مل أسماء معينة

بدأ في التحديث، يشتري كتبا تضم معاني الأسماء ويبحث عن أسماء أخرى على الإنترنت. يأتي إليه الوالد متردداً أو مستقرًا هو والأم على اسم معين، يُجلسه ليرتاح، يثرثر معه، يتباسط معه، يبش له، يحدثه عن "الزيارجا"، عن قوة اجتماع الأحرف، الأسماء الغالبة والمسيطرة والمناسبة، أفلاك النجوم وحركتها والمقادير المعقودة عليها، بحسابات الأفلاك و"الزيارجا" يعرف الاسم ذا الطالع السعيد والرزق الواسع والأمل وذلك النحس المهزوم، ضيق الرزق والخيال، الشقي. يبشر وينفر ويعرض ويخبر، هو كريم لا يضن بالأسماء وبالخير الكامن فيها، لكل مولود اسمه يولد به وهو عليم بهذا الاسم، اسم يوافق الحال ولا يصيب بالعنت.

حسين غمز لي بعد أن دفع محروس للثرثرة حول عمله ثم مال على محروس وقال:

- وافرض بقى عيل من العيال دي .. الشر بره وبعيد .. مات وهو صغير ولا حصلت له حادثة ولا عيي بمرض خطير.. هتعمل إيه لو أبوه جه وطبق ف زمارة رقبتك بعد ما سميته وبشرته؟!

محروس احتدت ملامحه وهتف:

- إيه؟!... ده عمره ما حصل أبدا ولا هيحصل.. الاسم بركة وسر وإن كان ساعات القدر غالب.. وبعدين دي علوم أصيلة موروثة كابر عن كابر وأبا عن جد.

أتشاغل بحركة القواشيط والزهر.

- شيش جوهار.. مش قلت لك النهارده يوم حظي.!

أميل على محروس، أهمس في أذنه:

- لا .. انت فعلا بالك مشغول النهارده.. مش بعادتك.. اللهم اجعله خير
- والله عندك حق يا دكتور .. بس ولاد اللذينا دول مش هيبطلوا نقورة وتريقة عليا وأنا مش ناقص..

يجاهد نفسه كي يمنعها من الكلام وفي الوقت ذاته راغب في الفضفضة، في رفع الثقل عن كاهليه، يريد أن يحكي كعادته، حكاياته دوما مثيرة للسخرية والرثاء، تدفعهم للتندر عليه، يحكي عن جنية جميلة رآها مرة وهربت، يتمنى أن تخرج له مرة أخرى ليتزوجها وتمكنه، عندما يتندرون عليه، يضحك معهم في استسلام ويقسم بجنيته أن يدفعها لسخطهم قردة، سيبقيهم على هذا الوضع لأيام ثم يعيدهم سيرتهم الأولى بعد أن يؤمنوا به وبجنيته وبأن الله حق والسحر معقود.
يحدثهم عن منور بيتهم المسكون، فتح شباكه دعوة لسكان المنور من الجان للحضور، لا يدخلون إلا إذا انفتح الشباك ودعوا، جان مؤمنون، ساعتها يأكلون من أكلك، يقبلون جبينك، إكراما لك قد يتجلون لمن دعاهم في هيئة قطط سوداء، تتحرك بين الأرجل، متى صرخت لرؤيتهم هربوا وقد رفضت ضيافتهم، أهنتهم وطردتهم، ساعتها لا تأمل في خير، يقسمون على نزعه وعلى التنكيل ورد الشرف.

كل حكاياته على هذا المنوال، حمار عم نور بائع الفول، كيف انحبس فيه بشري عاصٍ، كلما رآه استغفر وحوقل وألقى عليه

تحية سرية بصوت منخفض خشية أن يظنوا به الجنون، يكلم شارد الطير والحيوان.
ابتلع لعابه في صعوبة ومال عليّ وقد حسم أمره، انهزم أمام تشجيعي له على البوح ورغبته الجامحة في الثرثرة:

- بصراحة يا دكتور.. أنا هاقول لك.. أنت برضه غيرهم.. بتسمع وما بتتريقش.. راجل بتاع علم .. عارف إن فيه نظرية وفيه نظرية تانية والاتنين ممكن يبقوا صح أو حتى الاتنين يبقوا غلط.. أنت راجل محترم وهتفهمني.

هززت رأسي شاكرا على الثقة ومشجعا له على البوح.
محروس يملك كتبا في السحر، في التداوي به، في الأعمال وفكها، أطلعني عليها يوما، أعرف أنه عادة ما يفعل مع كل من يتقرب منه، يرفع من حظوته ويحاول تأييد ادعاءاته في الاتصال بتلك العوالم الخفية، كلها كتب أرصفة رخيصة، مهترئة الأوراق، سيئة الطباعة، مكتوبة بعربية ركيكة لعلامة مجهول أو منحولة لساحر أو لفقيه صوفي، عندما استشعر استخفافي بكتبه -والذي لم أحاول أن أبديه- ارتسم الجد على وجهه، مال عليّ وبصوت لا يكاد يُسمع همس في أذني وقد تعمد النظر يمينًا ويسارًا في ترقب واستطلاع، أسرَّ لي بأنه يملك كتابًا أوراقه من جلد قديم، مكتوبًا بلغة قديمة لا يعرفها،

قد تكون عبرانية أو سريانية، لا يعلم تحديدا، لكن حروفه وأشكاله مغايرة، كتاب يعلم أنه يحوي كل علوم سليمان وداود وسحرهم ومعارفهم، كتاب مصور، ألوانه فاقعة، بهتت بفعل

الزمن لشيطان مكبل وموتى يحومون وجان يحلقون وتعاويذ ورقى.

- أنا هاقول لك على اللي شاغل بالي ومنكد عليا.. أنا باثق فيك أوي يا دكتور وباحبك وباحب صحبتك أوي لو تعرف.. بقى لي كام يوم كده الدنيا مش ماشية معايا تمام في الشغل.. الناس مابقتش عاوزة الأسامي بتاعتي.. فجأة بقى فيه هوسة بأسامي معينة وأنا فقدت سحري وإقناعي.. مابقاش يهمهم لا الزيارجا ولا القوة في الأسماء..

- معلش ماتضايقش نفسك.

- مش كده وبس.. موضة الأسامي بقت غريبة. اللي عاوز يسمي صابر واللي عاوز ناجي ومستور ومستورة وافرجها يا رب.. والله واحد النهارده سمى افرجها يا رب .. ومجاهد وجهاد.. والله لو قلت لهم مش هيبطلوا نقورة وأنا اللي فيا مكفيني.. كفاية اللي بقيت أشوفه في المكتب... حتى الموت تحسه بقى غريب.. ماكنتش كده وكأني رجعت لأول أيامي في المكتب... قلبي بيتقبض مع كل شهادة باكتبها.. الموت بقى كتير أوي في الصغيرين وبزيادة ومش من زمان أوي... يعني بقى لنا ييجي شهرين بس أنا اللي ماكنتش واخد بالي يمكن .. تفتكر يا دكتور... أنت راجل قاري وفاهم وأنا أقل واحد ف القعدة دي.. تفتكر ممكن تكون دي من علامات يوم القيامة؟!

فقط دع التغيرات الطفيفة تتراكم بنفس القوانين المعتادة، اترك الانحرافات لتحدث، حبة الرمل لتسقط على كومة الرمال، بنفس قوانين نيوتن وأينشتاين والكم قد تنضم للبناء وقد تحدث انهيارا بسيطا وقد ينتج عنها انهيار ضخم، تتضاعف موجته ليهدم كل الجبل الرملي، فقط عليّ أن أدقق في الحسابات، أغذي الكومبيوتر خاصتي بكل المتغيرات، أتركه ليعمل لساعات طويلة، أقرأ الأرقام الناتجة، أحاول صياغتها في لغة مفهومة من أحداث لأعرف ما سيكون عليه الغد وبعد الغد، نظام شديد الحساسية لمعطياته البدئية، هكذا يتنبئون بالطقس، الموجات الحارة والأعاصير، هكذا يحاولون توقع الزلازل وحركة قشرة الأرض والأنماط التي تحكم عمل البورصة، صعودها وهبوطها غير المفهوم أو المبرر، كل شيء بقدر والرياضيات نسيج ذلك الوجود، أرقامها تسري فيه، تحكمه، تشكل مادته وتفاعلها وتبددها وتكونها.

أملك أن أنفذ للمستقبل، أقرأ أحداثه، أكسر قيود الزمن، أراه كفيلم سينمائي، أملك أن أقدمه وأؤخره وأدققه، ربما أدلكم على طريقة لمنتجته، التحكم في كل شيء وعكسه.

أرى انحرافات بسيطة تتراكم لتكون طوفانًا أو بقًّا وجرادًا وماءً يستحيل دمًا أو بشرًا ينسخطون قردة وخنازير، لا حاجة لمعجزات أو لهزة عنيفة أو لتدخل مباشر لله، فقط قوانينه تعمل وتراكم الأخطاء لتكون ريحًا صرصرًا عاتيةً، أرضًا تنخسف، بلادًا تُعذب بالطاعون، سبع سنوات سمان وسبع أخريات عجاف.

حاسوبي وبرنامجي يستطيعان أن يريا كل ذلك وأن يبشرا به وبقيامتكم، الفردوس والجحيم.

عامٌ كاملٌ مضى منذ وطأت أقدامي أمريكا للمرة الأولى، كانت الليالي شديدة القسوة وساعات النهار تخال أنها لا تمر، الكلمات التي أعبر بها عن نفسي لا تتجاوز المائة، مكررة ومملة، يعاملونني كغريب وأنا لم أعرف أن أخترقهم، لا أعرف أن أجاريهم في الأحاديث، لا أعرف مصاحبتهم في حفلاتهم أو حتى أمسيات السبت.
أجلس وحيدًا، شاردًا، عالمًا منغلقًا على ذاته، ذهنًا يعمل بكل طاقته دون جدوى، لا يفعل سوى اجترار الذكريات ومحاولة تركيب الأمنيات على الواقع والخروج بخيالات وأوهام عن مستقبلٍ بدا بعيدًا وضبابيًا.
المغتربون من جنوب شرق آسيا والهنود والأفارقة، بدوا أكثر تجانسًا معهم، كنت كنبتة شيطانية مختلفة، يقسو عليها الجميع.
ذات يوم اقتربت مني فتاة شقراء وأنا جالس في المكتبة، لا أذكر ملامحها، عيناي لا تقويان على التحديق طويلا في الوجوه والمقل، سرعان ما تخجلان، تغلقان عليهما الجفون، تتوتران، الفتاة غربية الجمال، مبتسمة وفاتنة، نظرت إلى كتاب بحوزتي من وراء كتفي، لم أحس وجودها إلا وهي تقتحم خلوتي وتسأل عن الكتاب بين يديّ، هززت رأسي في لا مبالاة أنه هو الكتاب الذي تحتاجه وتسأل عنه.

جلست قبالتي، كانت فرصتي لأفتح حديثا عن الكتاب وعني، عن الجامعة والبروفيسور وربما عنها، فركت أصابعي وتوقفت عن القراءة، عيناي مثبتتان بالأسطر، لا تتحركان، بكل غباء الدنيا، مدفوعا بتوتري وضيقي من إحساسي بتوقف الزمن أقول:

- الكتاب أعتقد منه نسخ أخرى، من الممكن أن تبحثي على الرف هناك.

شكرتني ونهضت وأنا بقيت شاردا لوقت طويل، لا أعرف ماذا فعلت وأي فرصة ضيَّعت.

حسين في أول لقاء جمعني به بعد عودتي الأولى من أمريكا احتضنني في قوة وقبلني، ابتسم وربت على كرشي، بطني الممتدة أمامي.

- إيه يا عم ده كله.. هوا أكل أمريكا حلو كده؟
- لا حلو ولا حاجة،هناك كل حاجة جاهزة, تنزل السوبر ماركت تجيب اللي نفسك فيه، تجيبه في أكياس شبه جاهزة، عشر دقايق تحضير تقدر تاكله، ده غير التيك أواي.. سمنة وزيت والذي منه.. في الأول ممكن تستطعمه بعد كده بتاكل وخلاص.

أبي نظر لي في لوم.

- يا ابني أنت صغير أوي على الكرش ده، إيه؟ مافيش رياضة في أمريكا؟!

أمي ضمتني إليها وهي مبتسمة، تأملتني في إعجاب

- أنت صحتك جت على أمريكا ولا إيه يا واد؟! اوعى يكون أكلهم عجبك أكتر من أكل أمك حبيبتك!!

عندما تجلس وحيدا بعد نهار طويل من البحث والعمل تتأمل حالك، تتحرك بين أربعة جدران في تثاقل وكسل، تمل الرقاد فتقوم وتجول بلا هدف ثم تعاود القعود أو الرقود، تستشعر ركود الدم في رأسك، تصلب عنقك، آلام بأسفل ظهرك، تفر بالذكريات، تحاول الفرجة على التلفاز، القراءة في الرياضيات، توشك أن تموت من الضيق، تخرج لتجول في شوارع فارغة، صامتة، خانقة، الإجازات تقضيها وحيدا، مهموما وميتا.

الطعام متعةٌ وحيدةٌ متاحةٌ تحت الطلب، لا يرفض مصاحبتي أو التسامر معي أو التخفيف عني، أتشاغل بتناول كل ما يقع تحت يدي، لا أشبع، أستمر في الأكل والتذوق والاستمتاع.

هناك في أمريكا لم يلتفتوا لكرشي الذي تكوَّر وبرز، وجهي الذي استدار وانتفخ بالشحم، السنام الذي بدأ يظهر على ظهري. غريبٌ في الزي والذوق، ما أحب وأكره، أفكاري وأولوياتي، لكنتي، مشيتي، ضحكتي، شكلي، خلاياي، بشرتي، رائحتي، مشاعري.. غريبٌ ووحيدٌ وملقى.

لم أحاول يوما أن أتقن فنون الصداقة، أنا مرغوبٌ وكفى، متفوقٌ، ذو خلق، خفيف الظل، مخلص، يتوددون هم إليّ وأنا لا أردهم، لا أبادئهم الحديث، على قمة العالم أجلس وهم يقدّمون إليّ القرابين، حسين وغيره وغيره، الآن أحاول أن أتعلم من البداية كيف أصنع صداقة وأقف فاشلًا، مسكينًا ووحيدًا بلا حولٍ أو أصحابٍ أو رفقاء.

أنا كائن لم يجرب أي شيء في حياته، من البيت للمدرسة للجامعة ثم للبيت وللجامعة، لا أخرج عن النمط إلا على فترات شديدة التباعد، ساعتها أخرج مع حسين وربما صديق آخر أو اثنين، أتنزه على الكورنيش، نأكل الذرة المشوية، نتبادل أي أحاديث تافهة وحمقاء، نتخيل قضاء أمسياتنا تلك في (سميراميس)، ننظر إلى النيل من أعلى، نفتح أذرعنا لتيارات الهواء تداعب وتجتاح .. وماذا لو تملكنا شققا دائمة على النيل؟!

تجاربي صفر، شقي بحدودها الضيقة، لست ذلك المتحرك، المقدام، المخترق، الجريء، الكلمات جامدة على شفتي، ربما لا تتكون بالأساس، عاجز عن التلاعب بها والتعبير عنها.

حسين أكثر مني حظا، موهوب، ابتسامته لا تفارق ثغره، كلماته دوما حاضرة، متحدث لبق، يحكي بتشويق، حكايات لا تنتهي، لا يمل، اللعين صداقاته بعرض المجتمع والعالم، ابن المحافظ دفعته في الكلية صديق مقرب، ابن البقال زميله في المدرسة الابتدائية، حبل الود بينهما ما زال موصولا.

أنفقت كل حياتي في تحصيل دروسي والتفوق، الأصدقاء مملون ومعطلون، قليلون هم من أجد في قربهم ودًّا وراحة، أرغب في اللعب والتسامر معهم، حسين أحد هؤلاء القليلين.

بيتنا منغلق علينا، نعيش بالستر وعلى الستر، أبي لا يعرف القهوة، لا يهتم إلا بعمله وبنا، أمي ربة منزل، تعلم جيدا أن البيوت أسرار و(أن الشمعة اللي بيتدارى عليها بتقيد)،

علمتنا أن الضر متى مسنا نصبر ونحتسب ولا نحدّث، الشماتة داء بشري لا علاج منه، حتى وإن أبدوا تعاطفا معنا سيخفون التشفي والشفقة في أعماقهم، متى مسنا الخير نخفي أمره، (عين الحسد لا تصيب إلا المؤمنين، الغلابة وتفلق الحجر).
أبي لا يظهر في الحارة إلا لدقائق معدودات عقب صلاتي المغرب والعشاء، يقف مع أهل الحارة وقد خرجوا معًا من الجامع قبل أن يصعد إلى البيت، المرات التي وقفت معهم فيها لم تكن أحاديثهم تتعدى التحيات وبعض الأخبار البعيدة والسؤال عن الصحة والحال والتشاور حول دخول التليفونات ومد الخطوط الذي اقترب أو الحكومة التي تسعى إلى مد مواسير الصرف إلى الحارة بدلا من تلك التي أنشأها الأهالي وتكفلوا بها على حسابهم.
أمي لا تظهر في البلكونة إلا لنشر الغسيل أو لتنظيف بلاطها.
لا أعرف كيف يمكن أن أغوي فتاة، أن أتقرب منها، أسمعها معسول الكلام، ألمس يدها وأحدق طويلا في عينيها وجمالها.
تجربتي الوحيدة في التعرف إلى فتاة ومحاولة الزواج بها كانت مأساة كاملة، أعترف أن زواج حسين جعلني أشعر أنني أفتقد شيئا، عليّ أن أعيد ترتيب حياتي، طوال عمري أرقب الفتيات من بعيد، لا أهتم بالتقرب منهن، أخجل منهن، سرعان ما يتجمد أي حوار معهن، يتحول إلى حديث شديد الرسمية والملل والسخافة.

الفتاة كانت طالبة في الصف الذي أوكلوا إليّ مهمة التدريس له كمعيد، جميلة، باسمة، وجهها صبوح وممتلئ، عيناها واسعتان كحيلتان، ذكية وأنيقة، في المساء تقتحم عليّ خيالاتي، أراني مرة أتسامر معها وقد أعجبت بها وأعجبت بي، نتلاشى في ضحكة واحدة طويلة وممتعة، مرة أقبلها وأحتضنها، مرة نتنزه سويا وقد سارت في سعادة غامرة.

قبل سفري مباشرة اتخذت قراري، تقدمت منها بعد انتهاء "السيكشن"، تعمدت أن أنتزعها من وسط تيار الطلبة وأختلي بها لدقيقة، كنت مبتلا من العرق والتوتر والترقب، انتشيت برائحة عطرها ورائحة الأنثى التي أشمها من ذلك القرب، استجمعت نفسي وسألتها أن نتمشى معا لوقت قليل، هزت رأسها موافقة ومتسائلة وقلقة.

- الصراحة أنا ما بعرفش أزوق الكلام وهادخل في الموضوع ... بصراحة أنا معجب بيكي ..

وجهها انسحبت منه الدماء، بدت مرتبكة، تبحث عن الكلمات، حدقت في خجل وحرج نحو الأرض.

- أنا مخطوبة.. وفرحي بعد امتحانات آخر السنة على طول كمان شهرين..

كدلو مياه بارد أصابك، كنت ساذجا لدرجة لم أحاول معها حتى السؤال عنها إن كانت مخطوبة أو مرتبطة أم لا، بكل عته وغباء تقدمت منها بلا تمهيد، اندفعت أهوجَ بلا أدنى حد للرزانة، أم كنت من الوحدة لدرجة لم أجد حتى من أسأله عنها، وحيدًا وسيئ الحظ وبرميلاً من حماقة وقلة حيلة.

كان الألم والضيق أشد من أن أحتمل، بين يدي حسين كدت أبكي، قصصت عليه كل شيء، أبحث عن أية كلمات تصبير وسلوان، تحاملت وكظمت مشاعري، حاول أن يكون مواسيًا ولطيفًا.

- هوا يعني اللي خلقها ماخلقش غيرها.. ولا يهمك.

كفاني خبلًا وجنونًا ولأخضع للمنطق وأعود لأمريكا، أبتعد عن أكوام القمامة الملقاة على جانب الطريق، تلال من ذباب وروائح كريهة وكلاب ضالة وقطط وربما ثعابين لا أراها، الأرصفة المكسرة، العربات التي توشك أن تعتلي الرصيف لتصيبك وأنت تمشي مع حسين، التراب المعلق في الهواء، الكحة التي لا تفارق صدري، الهواء الراكد والحر الشديد، الكهرباء المقطوعة، المياه الملوثة غريبة الطعم، طعم التراب في فمي وأنفي يسيل بإفرازات حساسية لا تشفى، الاحتقان في حلقي والكحة تجرحه.
أغادر لابنيّ وأهتم بنفسي، أُعالَج بشكل حقيقي وأشفى، أستمتع بما بقي لي من عمر وأرتاح، أصاحب أبنائي وتلاميذي، أجالسهم وأحكي لهم كل ما أتذكره ليعيش فيهم وبهم، أكتب مذكراتي وأسجل فكرة بحثي هذا لأجيال تالية قد تتقنه وتخرج منه بنتائج حقيقية أو يكتشفون تهافت الفكرة من الأساس، يهملونها ويتجاوزونها.

أتزوج ميري، أجول معها العالم، نعتلي سفينة تلف بنا كل الموانئ، نعيد اكتشافنا، كفى تضييعًا للوقت وتعاليًا على الحقيقة، أعشقها وأهوى مصاحبتها، أتمنى لو أتحد بها في عناق طويل، نلتصق لنعود جسدًا واحدًا.
هذا البلد لا جذور لي فيه، لا سبب لبقائي به، لا ابن أو حبيبة، حتى حسين سيملني قريبا، ما الذي يدفعه لتحمل هم شيخ عجوز مثلي؟!، صديقه الذي يعرفه ويود استرجاع علاقته به اختفى، كذلك حسين الذي أعرفه اختفى. فقط يتحرج من الاعتراف بذلك والتخلي عني، نحن غريبان. حسين مشغول بأبنائه، تأمين مستقبلهم، نفس أفكار أي شيخ عجوز من الطبقة المتوسطة، يريد أن يزوج البنات ويطمئن عليهن ويتدبر شققا للأولاد ويا حبذا لو تمكن من شراء قطعة أرض لهم، إن بنوها لتكون بيتًا يجمعهم فألف خير، وإن باعوها فستحافظ على قيمة المال المدفوع فيها، إن لم يحالفهم الحظ ويضاعف الزمن قيمتها.
يحسب حساب الغد، يتخوف من مرض قد يقعده ويعجزه، يخشى الغد والحاضر ولا يبتسم إلا ليعقب "اللهم اجعله خير"، على القهوة يحاول الهرب من الأيام، من مخاوفه ورعبه، يستسلم لتيار الحياة ويسلم أمره لله.
بنته المطلقة همٌ مؤرقٌ وتلك التي بالخارج وتزويج ابنته الثالثة، يحاول تدبر الأموال، اللف على الصنايعية، متابعة شراء الأم لحاجيات المطبخ وملابس البنت والنجف.

ابنه خريج التربية الذي يسعى للسفر بكل السبل، الولد الوحيد الذي أراده أن يشد أزره ويصلب عوده يرغب في الهجرة، انتظره كي يهتم بأمر أخواته البنات وأمره متى كبر وشاخ أو مات، يرعاهن ويرعى أمه، يكون سندهن وأمانهن من بطش الزمن، الولد سدَّها في وجهه، لا أمل له هنا، ولن ينساهم إذا سافر، سيتعلم ويعمل ويكسب ويحيا أفضل وسيعود ليصطحبهم، سيرعاهم من هناك وسيكون بإمكانه ساعتها أن يهتم بشؤونهم ويساعدهم بما لا يستطيع أن يقوم به وهو ما يزال هنا، بلا مستقبل أو فرصة، مغلول اليدين ومسكين وبلا أمل.

ما لحسين وكل ذلك الذي يشغل عقلي والاهتمام بكهلٍ عجوزٍ مثلي، صداقة اضمحلت وأهلكها الزمن، صديق لم يتبق منه سوى ذكريات، تجعد جلده وابيض شعره وتغيرت كل عاداته وملامحه، لا يحمل من ذلك الشاب الذي عرفه حسين إلا صورة قديمة امتلأت بالتشوهات والندوب، أنا نفسي لا أذكر تقريبا شيئا عن ذلك الشاب الذي كنته، لا أذكر أيا من أفكاري، كان أرعنَ وجريئًا، عقله منغلق، تجربته لا شيء، قلبه حي ونابض في قوة وعنفوان، حسين سيفيق بعد فترة، تشغله حياته ومشاكله عني، يدرك أن مصاحبتي ليست ردا للجميل أو إخلاصا لصداقة قديمة ولذكرى ماتت، ستتباعد مواعيد تلاقينا، يهجرني تمامًا.

لا شيء يربطني بهذه الأرض، علي أن أستمع لصوت العقل، حتى فكرتي، برنامجي وحساباتي بلا معنى أو فائدة أو طائل، مجرد حماقة، تخاريف شيخوخة، أي خبل يدفعني إلى ادعاء التنبؤ بالمستقبل، كسر كل قواعد المنطق والعلم والخبرة والفيزياء. معادلاتي شديدة الحساسية لمعلوماتها البدئية، معلوماتي غير دقيقة في مجملها، المعلومات التي بإمكانها التنبؤ تحتاج لإله مدرك لكل الكليات والجزئيات، يملك أرقاما دقيقة لكسور عشرية لا نهائية، وبرنامج لا يخطئ ولا يعرف تقريب الأرقام.

حتى وإن سلّمت وأقنعت نفسي أنه تكفيني المعطيات البشرية والأرقام غير الدقيقة تماما، أعرف أنه مع استمرار التعويض في المعادلات بذلك المستوى من الأخطاء والتقريب، والذي لا أملك فكاكا منه، سيزداد الانحراف وتتباعد النتائج وتقل الدقة، بإمكاني فقط إحكام التنبؤ لأيام، ربما لشهور قليلة، من أدراك أنك حتى تملك دقة البشر؟!، ما الذي تعرفه عن هذه المجتمعات حتى تأتي بنتائج دقيقة؟!، كل نشاط بشري ولو ضئيل كفيل بتغيير كل النتائج، ما الذي تعرفه مثلا عن فتيات الليل وعلاقاتهن برءوس الأموال؟ تأثيرهن على الساسة واتخاذ القرارات؟ ما الذي تعرفه عن بائعي المخدرات؟، مدى توفرها والاستقرار الشعبي العام؟، ماذا تعرف عن توفر السلاح وعن الجلسات العرفية؟، ما الذي تعرفه عن تأثير الذوق العام واختيار الملبس والمزاج العام للحكومات؟، ما الذي تعرفه عن تأثير تغير المناخ في الثورة؟،

ما الذي تعرفه عن معدلات التلوث وتشوهات الأجنة والسرقات وتجارة السلاح والخريطة العامة لانتشار البلطجة وتذبذب أسعار بيع الخضراوات وتراجع إنتاج الأرض الزراعية من القمح؟، معدل انفجار مواسير المجاري أو انسداد البالوعات؟، شحة بعض أنواع الفواكه؟، الطريقة التي يفكر بها سكان العشوائيات؟، أولويات بائعي الجرائد؟، تباين إنتاج المسلسلات وأزمة السينما؟، سهولة النشر والرقابة؟، القتل المجاني؟، أخلاق ولاد البلد؟، تلاشي الطبقة المتوسطة؟، السياسات المالية لضبط السوق والبورصة؟، أسعار الذهب؟، جلسات سمر الفلاحين ومواعيد الري؟.. أنت جاهل .. ربما تكون عالم رياضيات لكن عوالمك محدودة، لا تعرف كيف تترابط المجتمعات وكيف تتفاعل، لا تعرف أي شيء عن طبقات المجتمع التي تخالف طبقتك، بل لعلك لا تعرف شيئا عن طبقتك ذاتها، بعد كل ذلك الجهل وبمنتهى الحماقة والتعالي والغرور أدعي امتلاكي لرؤية المستقبل، تحليلي للحاضر وتحويله لأرقام والتعويض في معادلة واستشراف المستقبل.
ماذا أعرف عن تجار الأراضي ومافيا العقارات وتأثيرهم في حركة المجتمع ودوران الأرض وانفجار الزلازل؟، ما الذي تعرفه عن أي شيء؟.. مشردٌ قد لا تملك الحكومة أية معلومات عنه، يموت من البرد قد يغير من المعادلة، خفقة جناح بعوضة قد تؤدي إلى قيام إعصار، صفعة شرطي لوجه مواطن قد تتسبب في انهيار نظام الحكم،

إطعام قطة جائعة قد يؤدي إلى تأجيل الطوفان، اغتصاب فتاة وهي عائدة من المدرسة قد يشعل حربا أو يأتي بالشمس من المغرب، قتل ناشط بإجباره على ابتلاع لفافة حشيش أو ضرب بائع عربي متجول وإهانته من البلدية قد يتسبب بثورة في دول أوروبا الشرقية أو انهيار بورصة "وول ستريت".
وأنا إنسان وحيد وضعيف، أجري خلف معادلات من سراب، أدعي الحكمة والمعرفة وأنا أجهل من أجهلكم.
أطارد خيالات وعلما زائفا ويشبّه لي أني أمتلك فكرة كنز، لم تخطر على بال بشر وهي تفاهة كاملة.

أيمن الشريف هدية السماء لي، طالب الدكتوراه الذي تعرفت به في عامي الثاني بأمريكا، كان يدرس الفيزياء النووية، لا أعرف كيف وجدني، كنت أتجول وحيدًا في أرجاء الجامعة، أنهيت يومي الطويل وأردت الترفيه عن نفسي قليلا، التمشية بلا هدف، الاستمتاع بنسمات آخر اليوم، بلسعة برودة خفيفة منعشة، أعشق رائحة المطر الذي لم يسقط بعد، العالم وقد اغتسل بتكثف قطرات الندى. فوجئت به يقترب مني وكأنه يعرفني، عرّف نفسه، له في أمريكا ثلاثة أعوام واقترب من إنهاء أطروحته، تعلقت به كنبتة متسلقة، أو كدودة لا تعرف أن تعيش بلا عائل، أيمن وصحبته هم المجتمع الوحيد الذي رحب بي وبحث عني، ضموني لجلساتهم، أبوح لهم بكل أسراري ومخاوفي ويفعلون المثل، أحكي لأيمن عن رغبتي في الزواج ويبتسم، عن أستاذي المشرف على البحث وطلباته الغريبة،

بينهم تناولت أول شوربة لحم ساخنة، يومًا أعدوا ملوخية على شرفي، كان أحدهم قد جاء بها مهربة من مصر.
أعادوا لي الإحساس برمضان، أحدهم اجتهد في بناء مسجد وفانوس من أخشاب وورق سلوفان وأضأناه بلمبة تنجستن.
لأول مرة منذ وقت طويل يخف الضيق قليلا، أشعر أن في إمكاني الاستمرار في أمريكا، باتت لي صداقات، معارف، خطط للمستقبل، نزهات ومكان للبوح ووقت للاستمتاع.
صاحبتهم في رحلة لنيويورك وأخرى لسهول بنسلفانيا.
أيمن ممشوق القوام، دائب الحركة، نشيط، وجهه صبوح وباسم، مرحب دائما وجذاب، لا تملك إلا أن تسلِّم له وتدور في فلكه، طريقه شديد الوضوح، أغبطه على معارفه وقراراته وحسمه. أنا وبعد عام واحد فقط في أمريكا غم علي، لا أعرف لما أنا هنا، لا أعرف إن كنت أنوي الاستمرار أم الرجوع، لا أعرف وماذا بعد نيل الدكتوراه، لا أعرف لماذا تركت نفسي عاما كاملا وحيدا، مغتربا، بلا رفيق، تحملت وأكملت الطريق رغم كل العناء والألم واليأس، لا أعرف شيئا.. أيمن متدين جدا، المصحف لا يفارق جيبه، كان يعرف جيدا غايته، هو مصري وسيبقى مصريا، لن تغره أمريكا أو تطحن إرادته وتعيد تشكيله، هو أصلب منها وسيبقى كيانا متفردًا ومنفصلًا، حتى وإن بقى فيها طوال عمره سيكون صوت عرقه هناك.
أيمن لا يترك صلاة ويحافظ على الذكر، أهداني شرائط الشيخ كشك وعلمني أن أجيد الإنصات لها، لا أتحرج من الضحك على مداعباته التي يضمنها أحاديثه، كان يلقنني وأعاهده،

لن أسقط في خطيئة نسيان الأصل أو التقصير في الدين، لن تخلبني أمريكا بمتعها وفتياتها المتهتكات ولياليها الحمراء الصاخبة، وخمورها المعتقة ولهوها ومجونها..
الآن وعندما أجتر الذكريات أكاد لا أعرفني، أنا الإنسان الذي لا يعرف شيئا عن العالم ولا يهمه البحث عن معنى، فقط يحيا ويحاول التفوق، أن أبرع في دراستي، أكون الأفضل، بلا غاية أبعد من ذلك، لا أعرف حتى لم علي أن أجتهد لأصير أفضل الخلق، مدفوعا ربما بفطرة خلقت عليها أو متأثرًا بغرس غرسه في أبي، كلما رآني أحاول اللهو وتضييع الوقت أو أمسك بي مخفيا مجلة مصورة وسط الكتب أو عاد إلى العمل مبكرًا ووجدني أجلس إلى التلفزيون، في كل تلك الأحوال يعنفني ويقسو علي، يضرب لي أمثلة لا تنتهي بأبناء أصدقائه كيف يجتهدون وكيف يتفوقون وكيف تفتح الدنيا لهم أذرعها، علمني أن أتوجس من الجميع، أن أرغب في سحق الجميع، سأكتم أنفاس كل هؤلاء المنافسين، سأطفو بمفردي على سطح العالم لأكون الموجود الوحيد.
فجأة أصير ذلك المتدين، الذي وجد أخيرا غايته وراحته، أبحث فيما وراء هذا العالم الظاهر، أقتنص معنى يريح روحي التعبة في بطون كتب التراث الصفراء وباجتهادات المحدثين، أوقات الصلاة مواعيد مقدسة، هناك أجد أيمن، كلامه دافئ، ملامحه مريحة، يملك إجابات لكل شيء..

ليلة الويك إند نقضيها في مسكن أحدنا، نتبارى في الأسئلة الدينية، أذكر أنني وفي أولى هذه المسابقات عندما انقسمنا لفريقين، لم يستفد فريقي مني شيئًا، لم أقدر على إجابة أي سؤال، لم أعرف كم شهيدًا سقط للمسلمين في غزوة بدر، في أي عام كانت خيبر، اجتهدت في ملء مخي طوال السنوات الماضية بسفاسف الأمور، معارف أرضية وإن نفعت فنفعها محدود، الآن أملك أن أناقشهم جميعا، حفظت عشرة أجزاء من القرآن الكريم، اجتهدت في دراسة الأحاديث والفقه وسير السلف الصالح واستبيان الحقيقة والعمل للآخرة والجنة.
عندما أنظر إليّ حينها أكاد لا أعرفني، الآن أجدني وقد تعقد العالم من حولي، انفرطت ثوابته، هجرت يقينهم البسيط، أنظر نحوهم في ترفع وشفقة وغبطة، كنيوتن أكافح كي أصنع أرضي الخاصة الثابتة وأهديها للعالم، أرضي وبقليل من الفحص كأرض نيوتن شامخة ومتقنة لكنها أبدا غير ثابتة، أرضنا تكتنفها الزلازل والبراكين.... كل أراضيّ السابقة التي مررت بها تلاشت أمام منطق أفكاري، لا أجد ما ألوذ به سوى أرضي التي خلقت....
نيوتن كان مؤمنا لكن إيمانه لم يكن كإيمان العامة النصوصي، نيوتن كان كافرا بإجماع الكهنة والقساوسة والفقهاء..

أيمن اختفى، أنهى دراسته، حصل على الدكتوراه وعاد لمصر، وعد بأنه سيراسلنا، أن علاقتنا أبدًا لن تنقطع، لكنه سافر، انقطعت أخباره، أسأل عنه كل الرفاق، عله تواصل مع أحدهم،

أحضر دروس المسجد، أحافظ على كل الصلوات، أستمر في محاولاتي لقراءة القرآن على الأحرف السبعة التي تنزل بها.
كانت أقصى أمانيّ حينها أن أصير مثل أيمن، لهذا خلقت وبهذا كلفت، صورة مثلى للإسلام، مثالًا يحتذى به، خادما لله ودينه، في أي مكان وبكل السبل، في مصر لو عدت أو هنا في أمريكا لو قدر لي الاستمرار.
أيمن سيعود لمصر، يطمئن على أهله، يحاول التوافق مع الجامعة على صيغة تمكنه من الاستمرار قليلا في الخارج أو الحصول على أي إجازة تحت أي مسمى والعودة، عليه أن يصقل دراسته وأطروحته بتجربة أوسع أو احتكاك بسوق العمل.
أيمن لم يظهر مرة أخرى، لم أعرف شيئا عنه، كأنه حفنة من ملح ذابت.
قالوا إنه استقر في مصر وتزوج، عمل مدرسًا للفيزياء بجامعة الإسكندرية، هناك طحنته الحياة، قضت على ذكائه المتوقد، روحه الجامحة، صار أستاذًا عاديًا، قنع بالركون للعبادة والتقرب إلى الله، فعل الخير، اجتناب الزلل، تعليم أبناء المسلمين، سحقه الروتين والبيروقراطية، تبخرت كل أفكاره ونظرياته التي خلق في الفيزياء وتطويرها أمام الحرارة المهلكة لتفاصيل الحياة اليومية وتعليم الأولاد ومشاكل الترقية ولجنة الأبحاث التي لم يجد واسطة ليدخلها والمال الذي يود جمعه للحصول على شقة جديدة تليق به.

قيل إنه سافر للعراق، عمل بالمشروع النووي هناك، قُتِل مع من قُتِل، استشهد على يد الموساد..
قيل عاد لأمريكا، عمل في شركة مالتي ناشونال، أحد مقراتها دالاس.
الحق أني أفتقده، صحيح أنه دلني على الغاية والطريق والصحبة الصالحة، قادرون جميعا على شد أزري وعلى التخفيف عني إلا أن وجوده لا يُعوَض.
في كلامه ثقة تجبر ضعفك وشكك، يقين يعززك ويعضدك، يعرف كل شيء، يجيب عن أي سؤال، يقوي عزيمتي، كلما شعرت أنني أذوب وأتحلل.

لاعب نادي السكة بعد أن تلقى الكرة جرى بها نحو مرماه، لم يعترضه أحد ثم سدد بكل قوة، سدد وهو على بعد خطوة من حارس المرمى والمرمى، سدد ليحرز هدفا في نفسه.
لم يفهموا ما حدث، ضجت المدرجات بالصفير، الحكم تردد للحظة قبل أن يدس صافرته في فمه، يطلقها معلنا عن تسجيل هدف، الدهشة منعت اللاعبين من التساؤل، فقط التقط حارس المرمى الكرة، لم يحاول التحدث إلى زميله الذي أحرز فيه بكل قصد، كان الأمر جنونًا تامًا، من خط المنتصف بدءوا اللعب من جديد، لاعب السكة اعترض مرور الكرة ثم امتلكها، جرى من جديد نحو مرماه، الكل حدق فيه في دهشة وتساؤل وإن لم يتحركوا لمنعه، اقترب من حارس مرماه والذي لم يتحرك من مكانه كذلك ثم سدد ليحرز في مرماه هدفا آخر.

هذه المرة تناول الكرة بيديه وجرى نحو منتصف الميدان، تجاهل الصفير من المدرجات، نظرات زملائه، لا ينظر إلا أمامه محاولا ألا تلتقي عيناه بأحد، وضع الكرة على نقطة المنتصف ثم هرع نحو الحكم، وقف أمامه في تحد وأشار إليه بإشارة بذيئة بيده، كلماته التي صرخ بها فيه لم يسمعها أحد إلا الحكم وإن اجتهد البعض في تفسيرها:

- ليك أنت واتحاد الكورة ..

لم تكتمل المباراة، الجماهير هاجت في المدرجات، نزعوا الكراسي، ألقوها على الملعب، سبّوا الجميع ونزلوا إلى أرض الملعب، جروا خلف اللاعبين والأجهزة الفنية والحكام، رجال الأمن حاولوا التصدي لهم، كان الضرب متبادلًا، في تلك المعركة سقط عشرات الجرحى وبضعة قتلى.

اللاعب اعتقِل، قال في دفاعه أنه كان يعترض على ظلم التحكيم، لم يحتسبوا لناديه ضربة جزاء واضحة، احتسبوا ضدهم هدفًا من تسلل بيّن، بخلاف (الفاولات) التي كان يغدقها الحكم لصالح الفريق الخصم، اللاعب حوكم عسكريا بتهمة إثارة الشغب وتعمد إحداث بلبلة والتآمر لزعزعة الأمن والسلم المجتمعي، حُكِم عليه بالسجن المؤبد في السجن الحربي باعتباره قاتلا مثيرا للفتن.

بدا الأمر كعدوى، فور نطق القضاة بالأحكام يبدأ الهتاف ضدهم، يرفعون لوحات مطوية تحمل صور اللاعب الذي أحرز في نفسه، بدأ الأمر أول ما بدأ في محكمة شمال القاهرة ثم اجتاح كل محاكم مصر، محكمة شمال القاهرة حطمت تماما

وكأن إعصارًا هائجًا ضربها في عنف، دار القضاء العالي أحرقها الشغب، ستة محاكم في محافظات مختلفة أحرقت تماما، تدابير الأمن أمام المحاكم غير مسبوقة، بعضها بلا حضور، متى سمح بالحضور يتم تفتيشهم ذاتيًا، تعريضهم لأجهزة كشف المعادن والمسح الذري والأشعة السينية وكشف الكذب، أمام المحاكم صفوف من قوات الأمن المركزي، القضاة يرتدون سترات واقيةً من الرصاص وخوذات، تحيط بهم ثلاث دوائر أمنية لا تفارقهم وزوجاتهم وأبناءهم.

كنت أرى في أيمن خير معين لي في معركتي التي لا تنقطع مع الشيطان ومع نفسي، أنا في عنت دائم، كائن ضعيف يكابد، بين يدي أيمن أتطهر، أحكي له عن كل مخاوفي، يملك دائمًا حلولًا وكلامًا مشجعًا ودافعًا على الاستمرار والنصر، في خجل وبصوت هامس مضطرب وإحراج ما بعده إحراج، أشركه في أمر أحلامي، الفتيات اللائي يزرنني فيها، لا أملك دفعهن، لا يقتصر الأمر على الأحلام، سأكون صادقًا حتى النهاية، أريد أن أتطهر، لا أحد يملك غسلي بالكلمات إلا أيمن، لا يكففن عن مهاجمتي وأنا يقظ، أستشعر اللذة والدفء والرغبة، لا أحاول دفع تلك الخواطر والذنوب، أريد استبقاءها وأريدهن، يخضعن بالقول ويغوينني بحركاتهن، انحناءات أجسادهن، عيناي تفتشان فيهن، غير قادر على رياضة غض البصر، أنا ضعيف وملعون، قلبي سقيم، لكنني أحاول وأثابر وأسقط.

أيمن عذب الحديث، وجهه باسم، يملك حلولا لكل شيء، مقرب وعارف تجري البركة على يديه، ينتشلني ويحملني على النهوض والسير بقلب جديد.
ضحك وهون علي، من الذكر الذي بلا رغبات؟! أقسم أن يزوجني وستكون أجمل من أجمل ما رأيت، سيحث جماعته على البحث لي عن الحسناء، المهذبة، المتدينة، أما إصرار البروفيسور المشرف عليّ للبحث في تلك العلوم غير النافعة فلا ضير من الاطلاع عليها، وما في القلب سيبقى في القلب والإيمان الحق لن تهزمه أكاذيب وأبنية وضعية من استدلالات بشرية حمقاء، لا خشية عليّ وعلى إيماني.
أيمن اختفى فجأة، لم يحقق وعوده، لم يزوجني، لم يحظَ بالوقت الكافي ليفعل، ذهب بلا مقدمات، تركني وحيدا من جديد، جماعته التي عرّفني عليها لا تعوض عليّ، صحيح أنهم يودونني ويتفقدونني ويقسمون أنهم وفي أقرب مما أتصور سيخطبون لي، لكنني لا أرتاح لهم مثلما كنت أرتاح لأيمن، لا أدري لماذا؟!
أستشعر أنهم ليسوا بنفس عمقه، أو لعلهم لم يرتقوا بعد ليكون حديثهم نورًا ووجودهم بركةً وراحةً وسلوانًا، أعود وحيدا بلا رفيق، مؤمنا قابضًا على الجمر.

محمود نصار لا يرد، لا أكف عن محاولات الاتصال به، هاتفه مغلق على الدوام، أرغب في لقائه من جديد، هذه المرة سأكشف له عن سري، رجل بذلك العقل وتلك الروح سيكون قد وصل بحدسه فقط إلى ما وصلت إليه بمعادلاتي وتجاربي، لا

أعلم ماذا سيفعل، أعتقد في أنه لن يملك شيئًا، سيكون مثلي بلا حول، ينظر لكل شيء في ألم ويسخر ثم لا شيء، لن يحرك ساكنا، سيستسلم ويسلّم لمرأى الطوفان القادم، يسترخي على كرسيه الوثير، يسب الحياة والعالم وينتظر الموت بابتسامةٍ واسعةٍ مجنونة.

كثيرا عندما أنظر إلى ماضيّ لا أعرفني، لم أكن أبدا نفس الشخص، هذا الصبي ليس ذلك الطفل أو ذاك الشاب، أتأرجح في عنف ولا أستقر على حال، لم أعرف أني وأنا أستجيب إلى طلب البروفيسور المشرف على بحثي أن قدميّ ستزلان، أطعته لأتخلص من إلحاحه وحرجي من هز الرأس والتسويف، صرت كغريق في بحر من رمال متحركة، متى أحاول المقاومة، أغرق أكثر، أنسحب لعوالمه وأضيع.

البروفيسور اللعين لا يكتفي بسؤالي عما قرأت بل يناقشني فيه، يسأل عما فهمت، يسأل في غموض ولؤم، يتلهف على إجاباتي ويبتسم إعجابا وبسخرية وفضول.

العلوم التي أصر على دفعي لقراءتها ساذجة، عبارات مرصوصة بلا معنى ، أتوغل فيها مرغما، كارها، أفضت لي بالسر تدريجيا، رأيتها كبناء رياضياتي، بناء بلا نهاية أو وصول، ردهاته غير مكتملة، لا يُفسّر إلا بمفرداته ومن خلاله، كلغز يمتعك ويستهلكك، يعابث عقلك، تتقدم فيه وأبدا لا تصل لحل نهائي، لغز كلما تقدمت في بحثه يزداد صعوبة ويفتح شهيتك للكشف، عبره ترى قدراتك وعقلك، تشعر بذكائك وتفردك، تُعجَب بك وبالعالم، مسألة رياضياتية تمتعك وتبشرك وتعطيك ما يؤجج شوقك لجلوها وهي أبدا لا تنجلي.

ساعتها لم أدرك ما يفعل، كان صيادًا متمرسًا، يدرس فريسته جيدا، يقيمها ويزنها، عندما يرى أنها تستحق عناءه ينصب فخاخه ويرمي بأنشوطته، يخدرها ويسحبها إليه ويضيفها إلى عشرات البشر الذين جمع، يؤلهونه ويقدسونه ويجلونه ويعترفون بفضله، يدمنون على تنشق هواء صدره والعيش على عطوره التي أغراهم بها. أتحرر من أيمن وصحبته، إدراكه الصبياني المريح للعالم لأنحبس في خضم معادلات وفلسفات وعذابات البروفيسور.

البروفيسور أوقعني في توماس، جعلني وإياه في فريق بحثي واحد، ضم إلينا كذلك ميري، أوكل إلينا بحث نفس المسألة، لم أعتد مقابلة من هم على شاكلة توماس، أعتقد أنه كذلك لم يعتد مصاحبة من هم على شاكلتي، أنا الشرقي المحمل بعبء قرون من الأفكار ونصب العلاقات وآلام العادات، وهو الأمريكي المنفتح على العالم المتحرر من كل شيء، ذكاؤه مخيف، أخشاه، لا أستطيع مشاركته أفكاري وهو ثرثار لا يكف عن الكلام، حديثه الغزير يقلقني أكثر، يلبس علي، يشتت تركيزي، أريد أن أفهمه وأحتويه لأتعامل معه فلا أستطيع.

كان وسيمًا ومحبوبًا، ملامحه تتطابق مع صوري الذهنية عن ممثلٍ مغمورٍ أو صبيٍ مختال أو متهتكٍ فاشل.

أمامه أجلس صامتا، بينما يروح ويجيء، يفكر ويتحدث بصوت عال ومسموع، الفتاة ثالثتنا تنظر إليه في إعجاب، تنفرج ابتسامتها مع كل فكرة يطرحها، تناقشه لتستجليها وأنا

في الركن صامت، أحدق فيه، الكلمات جافة على لساني، أريد التداخل معه وأخاف.
كان طرحه عبقريا، حتى ومع تحفظي انفرجت أساريري إعجابا، الفتاة ثالثتنا حمقاء تماما، أمثالها يصلحن للتحدث عن الإنجازات، تدبيج المقدمات، الترتيب للمؤتمرات، ربما تحرير المجلات العلمية، تنسيق محتواها، فقط بإمكانها أن تكون واجهة إعلامية على هامش العلم، غير مقدر لأمثالها أن يصرن عالمات متفردات، تطرح عقولهن أفكارًا أصليَّةً.
كنت قد أدركت كل طرحه ومع بداية كلامه عنه، الفتاة أخذت وقتا أطول لتفهم، بدت حائرةً للحظات وهو لم يبخل عليها بإضافات للتوضيح وبمخطط كروكي، قفزت من السعادة وقبَّلَته وأنا أجفلت، نظرت بعيدا، كانا يحتفلان على طريقتيهما وأنا ملقى بمفردي على الأريكة..
لم أنم ليلتي تلك، في اليوم التالي كنت أملك ما يجبرهما الاثنين على الاهتمام بي، ابتسمت في نشوة وأنا أرى في وجهه دهشة وإعجابا وغبطة، الفتاة تطلعت إليّ بعينين حائرتين، مع تقدمي في الشرح والتوضيح استحال بريقهما لدهشة واتساع، تنقل عينيها بيني وتوماس والأرض، تنظر إليّ بشكل خاطف، تلمح ابتسامتي ثم تتعلقان بتوماس في تساؤل قبل أن تغيبا لبعض الوقت في الأرض.

توماس شرد، ارتاح بظهره إلى الأريكة، شبك أصابعه خلف رأسه ثم نظر إلى السقف، رغم سكونه كان متوهجا، عيناه تومضان ويبتسم.

فجأة قفز، صفق طويلا، هز يدي وربت على كتفي محييًا.
الفتاة بقت جالسة تتطلع إلينا وتبتسم في بلاهة، لم تقبلني، لن تقبلني، لا أريد قبلتها، لا أفكر فيها بالأساس.
في نهاية ذلك الأسبوع دعاني توماس للخروج معه لقضاء الويك إند في أحد الملاهي، رفضت في تحفظ، لم يلح علي.

ذهبت إلى الجامعة بحثا عن محمود نصار، أريد أن أرتاح بالحديث إليه، حتى وإن سخر مني، حتى وإن لم يكف للحظة عن التعريض بي، لكنه الوحيد الذي سيفهمني، سأخبره عن الموت الذي أفلت منه بأعجوبة، روح المعلم إبراهيم التي كادت أن تزهق، الرصاصات التي توزعت في كل مكان سريعة وقاتلة وبلا تصويب.
هو الوحيد الذي سيقدّر اضطراب مشاعري، رغباتي التي بت غير قادر على كبتها، الشغف الذي اشتعل فجأة بقلبي، الخوف والقلق والترقب والرهبة ووجع الجنب والانتظار، أريد أن أرى ابنيّ ربما أسافر لهما لكنني أرغب في البقاء، لا أريد للحظة أن تفلت، هل حدثته مسبقا عن ميري؟ أريدها هي الأخرى إلى جواري، أخشى النهاية التي ستأتي فجأة، أشعر باضطراب شديد، لا أحد سأرتاح بالحديث إليه سوى محمود وإن تهكم عليّ طويلا وارتج بالضحك.
- دكتور محمود ماجاش النهارده؟
- دكتور محمود مين؟
- دكتور محمود نصار.
- هوا حضرتك ما تعرفش؟.. د. محمود البقية في حياتك.

وجهي العجوز الواهن بقي على حاله، نظراتي المنطفئة الخابية بقيت على عتامتها، فقط قلبي استشعر فداحة الصدمة، رجلاي ارتختا تحتي للحظات قبل أن أحمل عليهما وأحاول الابتعاد، الرجفة تشملني وإحساس باختناق في الحلق.
عندما غادرت بوابة الجامعة بدأت أستشعر ذلك الخيط الرفيع من الدموع الساخنة التي بدأت في السيلان، أكفكفها.
محمود نصار مات منذ أسبوع ودفن وربما يكون قد تحلل الآن، صوتٌ زاعقٌ لم يسمعه أحد، نفخةٌ في الصور بتردد أعلى من إدراك الحواس.
محمود نصار انتحر..

أيمن لم يعد لمصر ولم يعمل في دالاس، أيمن انفجر أشلاء بقنبلة ربما تكون من صنعه، أيمن عالم الفيزياء النووية، الرقيق المتصالح مع العالم، المقاوم كفارس هو كبير مهندسي تنظيم القاعدة، مات بهوية غير التي عرفته بها وبصورة ربما تختلف عن تلك التي رأيته عليها، لكنني تعرفته فور عرض التلفاز لوجهه، حتى وإن داست ملامحه الأيام وترك لحيته لتغزر أكثر، لكنني تعرفته، للحظات جمد الدم في عروقي وتوقف الزمن بي، دارت الحجرة والعالم، ربما لا يكون هو، لا .. هو أيمن أنا متأكد.

عندما تتحد بالرياضيات، توقف حياتك عليها، تستنشقها وتغازلها وتتناولها مع كل وجبة وتصادقك وتتسامر معك، عندها تسقط الأبعاد، الألوان، الأصوات، الملمس، الرائحة، لا

ترى العالم كما يراه العامة بحواسهم، فقط تراه أرقامًا وبيانات تتنزل وتتصارع وتتضاعف وتنقسم وتتشعب وتتكاثر وتضمحل وتنشأ وتتموج وتفنى وتشع وتزأر وتتقلص وتغزر وتنهمر وتجتاح.
تنكسر الحواجز بينك وبين الأشياء ومنطقها، ساعتها يتخلى عقلك عن عقاله وعن قيود الحواس، كل ما اصطلح عليه البشر لتيسير الفهم يصبح بلا قيمة، أجدني في قلب الحقيقة، حقيقة لا قدرة لبشري على احتوائها أو التعبير عنها، حقيقة منفصلة لا تنكتب إلا بلغتها؛ لغة الرياضيات، لا ترجمة لها للغة البلهاء الفانين الأرضية، لغة حواسهم وعقولهم المحدودة بهم.
لا زمان أو مكان أو أرض أو سماء أو فان أو خالد أو محدود أو مطلق، لا شيء سوى أرقام ورياضيات وعلاقات بينية واحتمالات..
ساعتها ترى كل شيء ممكن، لا يصدمك شيء وإن ارتجف جسدي البشري ولم يتحمل، ارتعد وخاف ودهش ولم يفهم وتألم وبكى وانتحب.. كل غريب يغدو منطقيا تحركه طاقة الاحتمال.

توماس أصر على أن ألبي دعوته إلى الحفل الذي أقامه على شرفي احتفاء بنجاحنا في المشروع البحثي المشترك، حاولت التمنع وأنا راغب في مرافقته، في تجريب الاحتفال، الخروج عن النمط، تقليد حياته.

في صباح تلك الليلة استيقظت لأجدني في غرفة لا أعرفها، ألم شديد في الرأس، شعور بالغثيان، بين ذراعي جسدٌ غض،

بشرةٌ رقيقة، شعرٌ ناعم، قوامٌ لاهب، ارتاحت على كتفي، تشاركني نفس الفراش، ليلتها -وبدافع من فضول وبرغبة لا قدرة لي على مقاومتها في التجريب- جرعت الخمر لأول مرة، انتشيت وتجرأت قبل أن أغيب تماما، ميري تشاركني الفراش..

محمود نصار انتحر..
بكل عنفوانه وجيشانه وتحديه للعالم واحتقاره له، تعاليه عليه وتفرده..
محمود نصار لا يمكن أن ينتحر..
بإمكانه أن يشهد فناء العالم وتحلله ولا يهتز له جفن، سيبتلع المشهد في ابتسامة متهكمة، سيجلس فوق الدمار والأطلال ليدخن سيجارته ويُنظِّر..
ما الذي لا أعرفه عن محمود؟! ما الذي أعرفه عن محمود؟!..
لا أصدق ولن أصدق.. الأشياء لا تتخلى عن منطقها فجأة وإن تنبأت بها الرياضيات المسكونة بطاقة الاحتمالات..
محمود نصار منغلق على ألم مزمن، فقاعة من سخرية جوهرها اكتئاب حاد، محمود نصار مسكينٌ مهزومٌ وإن تظاهر بالانتصار، ضعيفٌ وإن نفخ عضلاته بالوهم.. محمود نصار تخلى عني وعن العالم..
محمود نصار لم ينتحر..!
أيمن لم ينفجر ..!

توماس وقبل أن تنضج ثمرته، يمنح العالم ما يقدر عليه، يتوهج كنجم ضخم لامع ومضيء، انطفأ وانفجر.. تهشم جسده

وانسحق في حادث، انقلبت به عربته وضربته في عنف بحديدها وزجاجها..
توماس لم يمت ..!
لا منطق للعالم بدون الرياضيات واحتمالاتها وألاعيبها وصعوباتها وقدرتها التفسيرية ومنحنياتها، كسورها العشرية المرفوعة لأُس سالب تسبقه أصفار كثيرة، احتمال شديد الضآلة لكنه موجود، قد يصيبك ويوقف قلبك أو يقذف بك لمجرة أخرى وحياة أخرى..
يوم عرفت بانتحار محمود لم أقدر على العودة لشقتي، لا أريد ذلك، أخشاه، لا أريد الخلوة أو التفكير، التصقت بحسين وصحبته، لم أغادر إلى بيتي إلا في جوف الليل بعد أن أرهق السهر الجميع وتخلوا عني، طوال جلوسي معهم لم أسمع كلمة ولم أنطق بكلمة، وإن تساءلوا عما بي، هززت رأسي نافيا أية وعكة، شاكرًا وغارقا في صمتي من جديد.
ذهبت للفراش منهكًا تمامًا، مستسلمًا تمامًا أتوسل النوم.
محمود لم ينتحر..
أيمن لم ينفجر..
توماس لم يمت..

يخبطون القواشيط بالسطح الخشبي للطاولة، يرمون بالزهر ليقفز ثم يطرح أرقامه، كنت شاردًا، تراجعت بالكرسي إلى الخلف، فردت رجليّ، أحدق فيما وراءهم، غيّرنا مقهى المعلم إبراهيم، الأخير مازال مغلقا والمعلم إبراهيم في المستشفى بين الحياة والموت، المقهى قريب من ذلك الذي للمعلم إبراهيم،

أكثر حداثة، كراسيه بلاستيكية، زبائنه من الشباب صغار السن، إضاءته مبهرة، قرقرة الشيشة عالية، الدخان يضبب كل شيء، الحركة فيه سريعة، الصبيان يرتدون الجينز، يتحركون في نشاط ملبين طلبات لا تنتهي، التلفاز مضبوط على قناة أغاني، رقص وموسيقى سريعة وومض. جلسنا خارج المقهى على الرصيف المقابل بعيدا عن الضوضاء وسحب الدخان.
محروس وبخفة تراجع بكرسيه بعيدا عن صخبهم، اقترب به مني، قبل أن ينظر إليّ في رجاء، أنظر إليه نظرة فارغة قبل أن أميل برأسي نحوه، همس في أذني:

- معلش يا دكتور باشغلك.
- لا بتشغلني ولا حاجة.. هوا أنا أصلا ورايا إيه؟
- أصل أنا لازم أحكي لحد .. أنا آسف استحملني، اخوانا دول ما هيصدقوا ويعملوني حكايتهم وتسليتهم..
وسيرتي هتبقى لبانة ف بقهم.. اللي بيحصل ف الشغل عندي بقى مرعب.. بس من غير ما تتريق.. أنا موظف أديلي سنين كتيرة وأكيد أقدر آخد بالي من اللي باقوله ده.. الوفيات في الأطفال بقت مرة واحدة بالزوفة، العيال اللي لسه مولودة، أبوهم يسجلهم من هنا ويوم ولا اتنين ولا أسبوع وتبص تلاقيه جاي يعمل لهم شهادة وفاة، واحد جالي وعنيه كانت بتطق شرر..
كنت كلمته عن الزيارجا واقتنع وسمى ابنه زي ما نصحته، مسك ف هدومي وف زمارة رقبتي، لولا الزملا حاشوا عني كان زماني مت ف ايديه فضلت أفلفص منه والأكادة إن كان في واحد تاني وبالصدفة

من أهالي العيال اللي اتوفوا كان موجود ولما لقى كده.. ضم ع الراجل اللي ماسك فيا وبيخنقني.. الزملا حاشوا وهدوا الاتنين رجالة، اللي انفجروا في البكا.. قضاء وقدر وربك رحيم بعباده.. أنا بيني وبينك بقيت باسكت خالص، مابتكلمش في حاجة وماباحاولش أغير في الأسماء، بس العيال مابطلتش تموت.. عيال عمر يوم واثنين وأسبوع .. والله زي ماباقولك كده.. شكلك برضه مش مصدّقني.. الموضوع زاد قوي .. قوي.. قوي..

كطفلٍ غرير يتأمل هطول الأمطار، ضربات البرق والرعد، فلا يجفل أو يمل، أواصل تغذية برنامجي بالمعطيات، أراقب الأرقام و هي تتضاعف، تتكسر، تتأرجح، الأرقام لا تنتهي، الحسابات لا تصل لنهاية، التوقعات مرهونة بالمعطيات المتغيرة دائما وغير الدقيقة إلى الأبد....
أعرف أني عجوزٌ يهذي، أُسلّي نفسي بذلك البرنامج اللعبة، أعبث به عبث الحياة بي، عبره أأرجح العالم، أراه وهو ينفطر ثم يلتئم من جديد.

أرقامي لا تعني شيئًا، لا تعني إلا ذاتها، ليس بمقدوري أن أصير إلهًا أو حتى جنيًا يتقن التصنت على السماء، ليأتي بخبر الغد اليقين، كل ما أفعله هباء، عبثٌ كامل كحياتي.

أضغط على أيقونة برنامجي على شاشة الحاسوب سبع مرات، لأدفع سبع نسخ منه للعمل، كل نسخة أغذيها ببيانات متراكمة لأحد الأسابيع المنقضية، اخترت سبعة أسابيع متتالية، كل أسبوع حولت أحداثه، أخباره، اتجاهات الرأي العام، مؤشرات أسواق المال، الرضا العام، نية السلطة، الأسعار، الإعلانات، برامج التلفاز، كل... كل شيء..... حولت كل شيء لأرقامٍ ومدخلات، غذيت كل نسخة من برنامجي ببيانات أحد تلك الأسابيع المتوالية.....

تركت النسخ لتعمل بلا توقف، تستهلك ساعات وأيام، تطرح أرقامًا ومزيدًا من الأرقام، تخترق شهورًا وسنوات في المستقبل، أحاول أن أقرأ ما سيكون استنادًا إلى بيانات الحاضر بلغةٍ رياضياتية، لغة الرب والعالم، أراقب الأرقام على الشاشة وهي تدور وتتنزل وتتلاشى وتتكون في عدٍ لا ينقطع.....

غير مأسوفٍ عليّ، عيناي محمرتان ودامعتان، حريقٌ يشتعل فيهما من كثرة التحديق في الشاشة والأرقام، وجع رأسٍ ودوار، أنام وأصحو على الأرقام، أخرج وأسارع بالعودة لها، أقابل حسين وصحبته، عقلي مشغول هناك في المنزل، يجلس أمام الحاسوب، يحاول أن يجاريه في حساباته، شديدة التعقيد.

كل ليلةٍ عندما أخلد للفراش، أحاول أن أريح عقلي المكدود، أجده يقظا وإن انتظمت أنفاسي وسقطت في نومٍ عميق، يحلل، يضيف، يترجم الأرقام ليخلق منها معنى، يدس عليّ المشاهد والخيالات، يفزع لأقل صوتٍ أو حركة، الصداع ضيفٌ ثقيل.....

جلسات الكيماوي تستهلكني، تقتلني ببطء، أعود منها لأسقط في إعياء تام ونوم عميق، أشعر بالغثيان ، بروحي تفارقني، جلدي مكرمش، شاحب، عيناي غائرتان، شعري وبر منتوف، أظافري ابيضت كجير وسقطت، أموت قطعة قطعة، تسقط أعضائي الواحد تلو الآخر..... المرض وانسحاب الروح لا يمنعانني من مراقبة الشاشة، تتبع الأرقام، تسجيل الجلي منها في دفتري وإعادة ترجمتها لأحداث....
الأرقام تتباعد، تمامًا كما توقعت، في البداية كانت الفروق طفيفة ثم أخذت مع الوقت ومع تراكمها تتزايد الهوة فيما بينها.....
أخبارٌ وأحداثٌ طفيفة - كتلك التي تحدث فقط بين أسبوعٍ وآخر- كفيلة بخلق فجوات وهوات ضخمة.
أنا كمن يجالس عرافًا يتكلم بإلغازٍ مضمر، لكنني أملك فك كل شفراته، أعلم أنه كذاب، على أقصى تقدير سيصدف، يبشر وينفر ويلف ويدور ويصرح ويلمِّح.... يقول بحروب وثورات وسلام ونمو ورخاء وانهيارات وهزات وبناء وسلام وكوارث وأمن وفزع وأمن وصعود، وصعود وهبوط فصعود فهبوط وانتكاسات.....

أرقام السبع نسخ لم تلتقِ أبدًا، رغم أنها تتنبأ بنفس المستقبل البعيد، لم تبدِ أي تماثل، ربما كانت شديدة التقارب في البداية، قبل أن تتفرق بها السبل، لتخلق سبعة عوالم متباينة، كعوالم الفيزياء المتوازية، جنون شرودنجر وقطته، الحية والميتة في

ذات اللحظة، عوالم تنفصل وتتضاعف وتتباعد مع كل حادثة، كرميات زهر، لتصير لا نهائية وبلا حصر....

في ثاني أيام وجودي بمصر أصر حسين على دعوتي لتناول الغذاء معه وعائلته، أقسم أن يطعمني من أكلنا المصري الذي حرمت منه لأعوام، إلى المائدة جلست زوجته وابنته المطلقة وابنه المدرس وزوجته، ابنة حسين الكبرى "سها" بصحبة زوجها، مهندس الكهرباء بالإمارات، لا يراهما إلا مرة وحيدة في العام....

حسين وفي لحظة فضفضة وتطهر حدّثني في أمر ابنته تلك، كان مثقلًا بالهم، والسهر طال، قمنا بعد أن شطبت القهوة، أخرج الصبي جردل الماء، رش منه بيده استعدادًا لمسح الأرض وتكويم الكراسي و المناضد. غادرنا أيمن ومرتضى ومحروس، تريضنا قليلًا وقد أصابنا هواء الصيف بالسطل، النسمات تأتي باردة وعفية ومنعشة، تضرب الرأس والقلب وتبعث على الانتشاء والتبسم، لم أقاطعه ولم أعقب على حديثه، كان كمن يكلم نفسه تحت تأثير السُكْر، صوته رتيب، أحيانًا ينظر إليّ كأنما لا يراني، ينظر في عينيّ الخاويتين ويواصل الكلام...

- ليه و ليه قلت له، لجوز بنتي، إني لقيت له شغل هنا بمرتب كويس، الواد انفجر.... اتجنن ده و لا إيه؟!.... فضل يبرطم بكلام مش مفهوم، آخره إني مش عاوز له الخير و عاوز أخرب عليه وعلى بنتي! ومنين سافر ومنين رجع!! كنت عاوز أقوم أديله على وشه و أعلمه

الأدب و الاحترام بس كتمت في نفسي..... الجيل ده ما اتربــاش.....
مالك سكت؟!..... ما بتتكلمش.... رد عليّ..... ما تسبنيش أهاتي و أكلم نفسي..... أنا قلبي موجوع بجد و مخنوق.... و مش عارف..... ما بقيتش عارف..... ربنا يستر....
حتى الأحوال عندنا في المصنع ما بقتش مضبطة و كل يوم و الثاني مشاكل و هم ما يتلم.... كله باصص لكله و متحفز لكله و خايف من كله و سواد..... ما فيش غير سواد.....

مائدة الطعام عامرة بأطباق المحشي والملوخية والأرز المعمر والفراخ المحمرة والبط والحمام المحشي بالفريك والعيش البلدي (المفقع).
للحظات تذكرت أمي وأبي وأختي وذكرى أول إجازة لي من أمريكا.
حسين كوّم أمامي تلاً من اللحم، الفراخ، البط، الحمام، ضحكت مداعبًا ومحاولًا منع حركة يده بين الأطباق ليرص في طبقي.
- كفاية كده..... إيه كل ده؟!...

بابتسامة واسعة مداعبة استحالت لضحكة عالية هتف:
- إيه؟!..... نجيب الشوكة والسكينة ولا لسة فاكر الأكل بالإيد..
أفرد الفوطة على فخذي و أضحك في مجاملة:

- الخوف لآكل صوابعي ورا الأكل.. تسلم إيدين اللي طبخ.. من زمان الواحد ما أكلش أكل طِعِم زي ده.
زوجة حسين ردت: ده من ذوقك.....

في آخر حديث حسين و فضفضته وقبل أن أتركه مضطرًا وقد بدأ النهار يعلن عن نفسه، انفجر كبركان من غضب، مشاعر متأججة ومتضاربة، تاريخ من التهكم والمرارة والألم والغيظ والرجاء واللوم والكيد، كان يحكي ويرتعد.
في مصنعه في صباح هذا اليوم عاملان تشاجرا، طعن أحدهما الآخر، لم تكن بينهما يومًا ضغينة، يقتسمان اللقمة، اشتعل الصراع بينهما فجأة بلا سبب، أمسك كل منهما بتلابيب الآخر، جزَّ على أسنانه وفاض بالعنف والقسوة، كانا كممسوسين، مسحورين.
أحدهما اتهم الآخر بأنه عصفورة للأمن، الآخر صرخ فيه بأنه لا يراعي العيش والملح، مضحوكٌ عليه وابن كلب، احتد الحوار، استحال السباب للكمات، قبل أن يسقط أحدهما مضرجًا في دمه.
كانت الكلمات تتحشرج في حلقه، عيناه تغوران وتجحظان، التجاعيد تزيد في وجهه وتحتد، أحاول أن أربت عليه وأتكلم، كلماتي حمقاء بلا معنى، ليس مطلوبًا مني أن أتكلم، في الإنصات كل السلوان.

شادي، ابن حسين، يتظاهر بالانشغال بالأكل، ينقل يده من طبق لآخر، يمضغ في حماس، يرمي بطرف عينه بين الحين والآخر نحوي، يتأملني ثم ينظر لوالده يتأمله.
نظراته مفضوحة وإن حاول سترها، تحاول أن تفهم وأن تعقد مقارنات، نظراته إليّ حادة، ثاقبة وإن حاول جفناه التخفيف منها ومداراتها.
تخدعه وجنتاي الممتلئتان، الدم الموهوم الذي يوشك أن ينبجس منهما، لا يعلم بأمر السرطان الذي يلتهمني من الداخل، قشرة الصحة الرقيقة التي تخفي هوة المرض والموت. الفتى ينقل بصره لأبيه، نظرته راثية، يتأمل وجه أبيه الباسم تحت نير الشقاء، أخاديده وحفره وندوبه.
شهرتي ومجدي ومالي وراحة بالي وأماني كما يظن، ثم عذاب وألم وخوف وذل أبيه.
نظراته وإن حاولت ادعاء التسامح والترحيب، فيها حسد وضيق وخبث، منغلقة على ألم ويأس وإحباط.
زميلان في نفس الصف وبنفس العمر والصفات وربما الذكاء، أحدهما يصادفه الحظ، يحسن الاختيار، تقبل عليه الدنيا، تمنحه بلا حساب وتغدق عليه، فيسافر ويتجنس أمريكيًا، ينال أعظم جوائز الرياضياتيين، بينما الآخر يوشك أن يموت بالضغط والسكر والتجاهل وعدم التقدير ومعاناة أبنائه وشظف العيش، متشبث بالحياة ومثابر ومبتلى بأشواكها، متعثرٌ في حبائلها.....
حظٌ صرف.....
أبوه حاز كل ما عنده بالدم والقهر والإحباط والأحلام والأماني المجهضة، يراني وإن أصابني العنت فحياتي سهلة بلا عوائق،

يسيرة وممهدة، مستقبل أبنائي مضمون، أقاطع حيرة مقلتيه وأفكاره وشروده.

- وأنت يا أستاذ شادي أخبارك إيه؟
- الحمد لله.. أدينا بنحاول.

شادي يدفس نظراته في الطبق أمامه، يواصل تناول طعامه في آلية، يمضغ بلا تلذذ، يعاود اختلاس النظرات للجميع.

بعد الأكل، أجالس حسين وابنه شادي في الصالون، نرشف الشاي:

- تعرف إني من زمان أوي ماجربتش أشرب الشاي على طول بعد الأكل..
- نورت مصر يا دكتور
- منورة بيكم والله

شادي وفي تردد تداخل مع الحديث.

- وحضرتك أول ما رحت أمريكا اتأقلمت معاهم على طول؟
- أصل شادي يا سيدي هوا التاني غاوي سفر، بس الحمد لله الدنيا معصلجة معاه حبتين، ده غير إن ماقداموش غير الخليج.
- أهو نعرف برضه يا حاج..
- تعرف إيه؟
- ولا حاجة..

أقطع الصمت الذي ساد للحظات:

- يعني.. الحمد لله.. ف الأول الأمور بتبقى صعبة، بس بعد كده بتتعود..

نسخة واحدة من النسخ السبع لبرنامجي كانت تقفز في جنون، قفزات كُمومية، بدت فظيعة ومرعبة كإعصار يلتهم كل شيء، عالمٌ كاملٌ يتقوض، جبريل يرفع الأرض على جناحه ثم يتركها لتهوي من علٍ، رأسًا على عقب.

البرنامج يعالج المعطيات، يطورها، يستنتج، يبشر، يتنبأ، الأرقام وإعدادات البرنامج لا تتيح رفاهية تصوير حياة كاملة، تفصيل الأحداث كعرافة أسطورية، هي فقط تلمّح وترسم صورة عامة، البرنامج يعرض أرقامًا، أملك ترجمتها لأحداث عريضة، لا أعرف تحديدا من سيتم اغتياله، من سيعتلي العرش، من ستنهار على رأسه أعمدة القصر، أي موظف سيفتك به العامة أو يلتهمونه حيا، أي فرع للنيل سيجف أو يتلوث بالدماء والجثث والعفونة، أي قصر سينخسف، أي عملة ستصدأ، أي جبل سينهار، أي أرض ستهبط، أي أرض ستبور، فقط الأرقام تتصارع وتقفز لتنهار بالعالم وترسم الحفرة بلا قعر أو قرار.

الأرقام لا تعرف أن تكذب أو أن تتجمل.. وأنا متبصر يتحسس طريقه ويطلب الكشف، لا أملك إلا عزمي وقوة أفكاري والتعبير بعبارات مجازية، أحاول أن أعيد تفسير الأرقام المتراقصة والمتسارعة.

كانت نسخة وحيدة من السبعة، أرقامها تتنافر سريعا، تتدافع في جنون، أرقبها بحياد ورزانة عالم، قلب يخفق في تسارع، عينان تحاولان التكذيب ومراجعة المعطيات البدئية، عقل مشغول ومسكون وعليل، حلق جاف ونفس منهارة ومستسلمة ومسلِّمة.
الأرقام شديدة الغرابة، تقول بشمس تشرق من المغرب، ابتسامات مشنوقة في السماوات وقد تضببت بدخان حرائق وانفجارات ورائحة كبريت ومطر حمضي...
ذرية مبتورة الأذرع والأرجل، مفقوءة الأعين، عور، مكفوفون، بأمعاء مستأصلة، قلوب مطعونة، أوجه مشوهة، آذان لا تسمع، أطفال يحصدهم الرصاص والقنابل والألغام والفئران والطاعون، تدهسهم الأرجل، يلتهمون أجسادهم الميتة المتحللة لسد الجوع.. رءوس تدور حول أعناقها في كل اتجاه، تخشى موتا يأتي باردا في نصل أو ساخنا في شظية أو سريعا في طلقة أو عاتيا في معركة أو متخفيا في خيانة..
أنفاق المترو غرقت بمياه الصرف الصحي، النوافذ بلا زجاج وقد هشمته الانفجارات، دُس بعضه كشظايا في قنابل بدائية الصنع، الموت متخفٍ في كل مكان، خلف شجرة محترقة ووراء جدار منقض، في حفرة سطحية، في سماء ملبدة بالغيوم، موت سهل ومجاني وخاطف..
المياه تسممت والأرض عارية والطعام شحيح والجوع يحصد كل ضعيف، ذليل، قليل الحيلة..

الشوارع مقطوعة وتحت القصف، لا حجر فوق الآخر، تكسرت وتطايرت، قذفتها الأيدي وهوت فوق الرءوس وضربت الصدور وكسرت الأرجل والأذرع، انهارت كل سلطة مركزية، حاكم عزل آخر، وآخر قتل آخر، وآخر سجن آخر، آخرهم فقئوا عينيه وشقوا صدره، استخرجوا مهجته، طعنوها وغرسوا أنيابهم فيها وداسوها بأقدامهم..
كل فئة ضمت على أشباهها وشيعها، انتظموا في فرق لا عد لها، بعض الفرق اعتدت على البعض، بعضها ضعيف، بعضها منهك، بعضها يستحق، بعضها مظلوم.. القتل مجاني، حملات الصيد والفتك لا تنتهي على الطعام، مناطق النفوذ، من أجل الحياة، الانتقام، قبل أن تتشرذم الفرق والشيع يعضها الجوع وتضربها الخيانة، كل إلف لا يأمن إلفه، من أقام ظهره في ظهر صاحبه يحميه يطعنه من خلف..
الأرقام بدت خالية من كل مدرك لها أو متنبئ بها، كشمس جاءت من المغرب، لم يدركها أحد وهي تنقلب لتبحر في اتجاه معاكس، كريح هادئة مرت لتقبض كل عارف مدرك لما يحدث..
المياه الإقليمية والشواطئ امتلأت ببوارج لدول أجنبية تمنع كل من يحاول التسلل لها، أبراج مراقبة تقتنص كل من حاول الهرب والهجرة، سيحمل الوباء معه ويقوض مجتمعاتهم، ينشر الفوضى.

المعلم إبراهيم مات، استضافته الرعاية المركزة لأسبوع كامل قبل أن ينهار جسده تمامًا وتفارقه الروح، أجروا له ثلاث عمليات جراحية بلا فائدة.

أبناؤه الثلاثة وقفوا على مدخل سرادق ضخم يتلقون العزاء، نافخين صدورهم، مدججين بنبابيت ضخمة، عيونهم مفتوحة، نظراتهم حادة، حسين شدّني معه لنحضر العزاء. كانت المبخرة ضخمة في وسط السرادق، البخور ينبعث زكيا، السرادق ممتلئ عن آخره، الكلوبات المزخرفة غالية الثمن تحيل الليل إلى ظهيرة مشمسة، المقرئ مفتوح الصوت، يرتل ويجوّد ويتنقل بين المقامات، حسين مال عليّ:

- شايف عياله واقفين ازاي؟

أهز رأسي وأنا أتطلع إليهم من بعيد.

- صقور هتنهش أي حد يقرب.. بيهددوا ويستعرضوا.. مش هيتاكلوا بعد أبوهم ..حتى لو الإشاعات اللي كانت بتتقال عن اخوات أبوهم اللي نهبهم في الصعيد صح مش هياخدوا معاهم حق ولا باطل بعد المنظر ده.. وأهل المنطقة بِكِنوا زي ما كانوا.. مافيش حاجة اتغيرت واللي خلف ماماتش.

فقط المقهى استحال إلى كوفي شوب، التمع بدهانات وأضواء جديدة، لمبات تومض وتطفئ، شاشة عرض كبيرة، أغاني سريعة راقصة، نباتات زينة، صخب وزحام.

مرتضى ليلتها لم يلحق بنا، في اليوم التالي كان يتحدث كدرويش، منتشيا بفضل الله وكرمه، ابتسامته واسعة، ملامحه مرتاحة ومطمئنة، صدره مثلج، كان خفيفا ممتلئا بالعرفان، كمن أشرف على الهلاك ثم نجا بمعجزة، أدرك وآمن وجدد حياته.

لازلت مضطربا، لم أتمالك نفسي بعد، أفكر كثيرا في موت محمود نصار، أكاد لا أصدق، محمود غاب لكنه لم يمت، اختفى فقط وسيعاود الظهور بجنونه وجرأته، أمثاله لا يغادرون بتلك السهولة، لا ينتحرون.
أكاد لا أعرف شيئا عنه، لم أرَ منه إلا ما سمح لي أن أراه، أوشك أن أصدق روايتهم وأكذّب خبرتي، أؤمن بالأرقام وأخنق حدسي.
محمود مشاغب والمشاغبون لا يرحلون هكذا في سلام، بلا ضوضاء أو صخب أو وجهة نظر.
صوته مازال يرن في أذنيّ، صورته تتقافز أمام عينيّ، ضحكاته واسعة ومستفزة، يضغط على أعصابي ويقزّم من كل ما أنجزت وأُنجز، يسخر من أفكاري المحدودة، الخاضعة للنمط ولمركزية العالم والمنطق، أبدًا لا تحلق بعيدا.
محمود نصار وبِوَحْي منه أدرك أنه بصق على العالم بصقته الأخيرة، امتلك كل الشجاعة وتحدى ونفذ، لا يُبقي على حياة لا تستحق، استطاع أن يتخلى عن الابن، عن ميري، عن الخوف والرهبة وبجرأة بلا مثيل، ارتمى على ظهره وأخذ يضحك ويقهقه على العالم.

أنهى حياته ووجود العالم..
مرتضى لم يحضر إلى المأتم، (فرَّاشة) المدرسة الجديدة امرأة ثلاثينية، بحسب مرتضى ليست بالجميلة لكنها مقبولة، عملت بالمدرسة مؤخرا.
كان يتحدث بسعادة وفحولة، شعور بالانتشاء والامتلاء والتفوق:

- البت الصراحة فرسة وهايجة.. أول ما تبص ف عنيها تقرا ده.. عنيها مولعة ومشعللة.. حسيتها وقريتها أول ما قربت مني.. عينيها بتقول عاوزاك .. عاوزة دكر.. (ضَحَك كثور يخور).. وأنا سيبتها تستوي ع الاخر وعملت مش واخد بالي.. هي عارفة كويس هي عاوزة إيه.. فتحت أي كلام معايا .. تقول لي معلهش بس أنا بارتاحلك.. أخبارك وعيالك ومراتك.. بتتقل عليا أنا عارفة.. بس أنت طيب أوي.. تتدلع وعنيها توسع وتحس شكلها هتاكلني أكل.. وأنا عامل عبيط.. صياد عارف امتى يضم الشبك.. امبارح جابتها على بلاطة.. قالت في قلق وعينيها عينين كلب لسه مضروب بطوبة وخايف يضرب بالتانية.. أنا عاوزاك.. كان لازم أبيعكم وأبيع المعلم إبراهيم وجنازته وأروح معاها.

نظر إلى وجوهنا، لم تعطه أي انطباع، فقط محروس كان فاغرا فمه، أنا أتأمله في صمت، حسين على وجهه شفقة، أيمن يتثاءب وإن تعلقت نظراته بمرتضى.

- بس الحمد لله علشان قلبي طيب والله ربنا نجاني.. بنت الكلب كانت كل ما أولع النور تطفيه.. أولعه تطفيه..

تقول باتكسف.. كانت ريحتها تخبل وعينيها بتقول لي اتفضل.. ودلعها ماشوفتوش على حد.. كانت هتبقى ليلة من ألف ليلة بس الحلو مايكملش.. وقليل البخت يلاقي العضم ف الكرشة.. وربنا برده مابينساش عباده.. نعصاه آه بس قريبين منه وفاكرينه على طول.. سبحانك يا رب.. بنت الكلب وهي بتتلوى لمحت فرجها كان شكله يقرف، مشوه وغريب.. أنا نفسي ماعت وكنت هاجيب اللي ف بطني.. المومس بنت المومس ماكنتش عاوزاني أشوفه.. انا قرفت وقمت لميت هدومي ومشيت.. وهي تمسك وتشد من ايدي الهدوم وتترجى.. كلمت ف ساعتها دكتور أيمن.. الله يكرمه وقال لي على المصيبة اللي كانت هتجرا لي.. مش كده يا دكتور أيمن؟ (هز رأسه بالموافقة ولم يعقب..) بنت الكلب كانت هتجيب لي زهري بس ربك رحيم بعباده.. ممكن أعصاه آه.. بس قلبي طيب وبتاع ربنا وفاكره وباخافه وقريب منه فنجَّاني.

ست نسخ من السبع أبدت تشابهًا في السلوك، وإن اختلفت أرقامها تمامًا، انتظمت على هيئة سفينة تتأرجح في عنف، تميل يمينًا ويسارًا توشك أن تنقلب وتغرق، ترجها قوتان متضادتان في الاتجاه، تحيد إلى أقصى اليمين حتى يوشك جانبها أن يلامس الماء فتغرق، ثم ترتد إلى أقصى اليسار حتى يوشك جانبها الآخر أن يلامس الماء كذلك فتغرق، الأرقام تنتظم في

نمطين متعاكسين والنظام بأكمله يتأرجح ويقفز بينهما، يقترب من الانهيار التام والجنون..
واحدة من تلك النسخ الست سقطت سريعًا في دوامة الانهيار، أرقامها بُتِرت في عنف، انسحقت وتلاشت وهوت..

خمس نسخ أبدت بعض الممانعة للانهيار، ارتجت يمينًا ويسارًا، صمدت، كسفينة بمركز ثقل في أسفل أسفلها يحفظها من أن تنقلب، كلما أوشكت على الانهيار عاد ليدفع بها في الاتجاه المعاكس لتعاود التأرجح، الميل، القفز.
ثلاث نسخ من الخمسة أظهرت سلوكا رياضياتيا غير مفهوم أو مبرر، شغلني لأيام، أحمله معي في الصحو وفي النوم، وأنا أتأمله على شاشة الحاسوب، وأنا أتسامر مع حسين، وأنا أقرأ الجرائد، أو أقلّب بلا هدف في التلفاز، وأنا أحاول الهرب من إلحاح ميري ورغبتها في القدوم إليّ ومرافقتي، أحاول الوصول لنموذج تفسيري، يضربني الإنهاك وأقاوم جفنيّ المتقلصين، الثقيلين، الكيماوي يهد الجسد، ينال من صفاء الروح، يطفئ وهج الدماغ، ينال من قدرتي على التركيز والإبداع والألق..
التفسير الوحيد والنموذج الذي بزغ في خاطري أنا المنهك، كان لأرقام انتظمت في هيئة بشر، تجري على سطح السفينة، تتفاعل مع ميلها، تجري من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، البشر كأنما يتحركون بعقل جمعي يوّحد حركتهم أو يتحركون في فوضى تامة..

نموذج الحركة الفوضوية للبشر على السطح دفع السفينة للاهتزاز في كل اتجاه بلا نظام، لكنه لا يؤثر في ميلها يمينًا ويسارًا، فقط تميل وهي ترتج.

نسخة واحدة كانت حركة الأرقام على السطح جمعية ومناوئة لحركة ميل المركب وتسارعه نحو الغرق، يميل المركب يمينا فتكافحه بالتحرك يساراً ويميل يسارًا فتقاومه بالتحرك يمينًا، حتى يكاد يستقر.
نسخة كانت الحركة على السطح تشبه تأثير الرنين، بذل القوة في لحظة ما، مناسبة تماما يضاعف منها ومن حركة المركب، كأرجوحة أنسب لحظة لبذل قوة عليها تأتي بأفضل عائد عندما تكون في أقصى ارتفاع لها وتوشك على البدء في الانخفاض، هكذا كانت الحركة على السطح جمعية وتضاعف من ميل السفينة، تسرّع من غرقها، تدفع النظام في جنون نحو الانهيار بشكلٍ أسرع.
الأرقام كثيرة والحسابات بلا نهاية، الأرقام لا تعرف المهادنة، أنا حائر وممزق، أريد أن أركن للراحة، ترجني الصدمة تلو الأخرى، الخوف، الموت، الانتحار، الفوضى، الضوضاء، الوحشة، أوشك أن أسقط تماما، أستشعر الدوار والرجفة، رغم كل ذلك أستمر في اجترار الأرقام والحسابات ومتابعتها وأنا مسحوق ومنتهك، أرقامي بلا قيمة وقياساتي ورغم تعقيد بنائها خاطئة، لا أملك دليلا واحدا عليها، التاريخ يسخر مني ويهزأ. خطواتي خارج عالمي محدودة، تنبؤاتي هزلية بلا برهان، أحاول الهرب من عقلي الذي لا يكف عن العمل، لا أقدر على

وقفه رغم كل العراقيل التي أضعها أمامه، يقفز عليها ويتحداني، يألم ويكمل وأتألم وأكمل.

في لحظة لن أدركها سيتدخل معطى محدود لا أدركه، سيعمل، يسخر مني، يهدم برنامجي وحساباتي.
أرقد منكمشا على نفسي من الإعياء، جسدا جافا، يابسا، أتنفس بلا حياة وبلا رغبة، الهاتف يرن، شاشته تعلن عن ميري المتصلة، أرد في كسل، صوتها يأتي حانيا، دافئا، بعيدا.
- ماذا؟!
أنتفض من رقدتي، أشهق كغريق تعلقت يداه الواهنتان بطوق نجاة، أشهق في عمق، كأنني أسترد روحي المفارِقة، أموت في بطء ثم أغتسل فجأة بمطر الخلود.. ميري في القاهرة.. رفضت تسويفي وتعنتي وضربت بكل شيء عرض الحائط، أعمالها ورفضي وجهلها بعنواني، وصلت مطار القاهرة ثم كلمتني، صرخت من الإثارة، أغيّر ملابسي في سرعة مفعما بالحياة والرغبة والشغف، كانت وكأنما ضغطت شفتيها إلى شفتيّ، ملأت صدري بهواء صدرها، أريدها، أبغي أن أستلقي على صدرها وأبكي، أبكي وأتخلص من كل همومي وشدِّي العصبي، أحكي لها بالتفاصيل أو بغير تفاصيل، أرتاح بالنوم في حجرها، يدها تمشط رأسي، أخلد أخيرا لنوم عميق وسلام.

- مرتضى تعيش أنت ..
قالها حسين في الهاتف كأنما يرميني بحجر، محاولاته للسيطرة على كلماته واضحة بضغطه على نهاياتها، كأنما يخشى أن

تنفلت.. الموت مرعب ومخيف ويقترب، لا يهدد ولا يتسلل بل يقتحم ويصرع بلا كلمة، بلا إنذار أو اتفاق.. مرتضى وإن تخابث أبله.. وإن تحدث بسوء طيب وعبيط..
الخبر هبط صاعقا ومفاجئا، بالأمس فقط كان يتحدث عن نجاته من الزهري، تقمص دور التابع المأخوذ بالكرامة، تركنا ليبيت عند زوجته الجديدة، دست له السم أو طعنته.. لا يهم.
الجنازة ولحظات الدفن كانت متوترة، زوجته قاتلة وابنها منه مشرد، وبيت آخر له يراه ظالمًا، هجرهم من أجل امرأة أخرى ثم مات.. يبكونه ويلعنونه، العيون قلقة، المشاعر مضطربة، العيون تخشى أن تلتقي، الكل يود لو يجري الزمن، يمر ذلك الوقت الثقيل، يسارعون بالمغادرة، يَدْعون للمتوفَّى مهرولين يخشون الاستفاضة فينفجر ما في الصدور، لحظات ثقيلة ومحرجة، صمت بلا قرار.
حسين لم يغادر مع المغادرين، بقي واستبقاني، بكى كطفل ووقفت إلى جواره خاشعًا، وقف ليلقن المتوفَّى كلمات السؤال، صوته متهدج وحزين، قلبي مفطور، في كل لحظة أهم بالانصراف يضغط على يدي ليستبقيني، يجذبني ويثبتني، يدعو له صادقًا.

- اللهم وسع مدخله.. الله أكرم نزله.. اللهم نقه بالماء والثلج والبرد.. اللهم أنر له قبره.. اللهم اجعل من أمامه نورا ومن خلفه نورا وعن يمينه نورا وعن يساره نورا ومن فوقه نورا ومن تحته نورا واجعل قوله نورا في نور.. اللهم عامله برحمتك ولا تعامله بعدلك، اللهم

اجعل له قبره روضة من رياض الجنة لا حفرة من حفر النار.

أرتعد، أسناني تصطك، أستند إلى حسين ويضغط على يدي.. الموت يتضاعف إحصائيًا كل فترة زمنية محسوبة، أرقامي تدركه وتناميه، يتضاعف بشكل منتظم، يقتحم بمنجله ونصله البارد، خلف كل شجرة وحجر على الطريق السريع ومحمولًا على أجنحة البعوض، في أسلاك الكهرباء وفي مواسير المياه والصرف، خلف كل باب وفي كل حائط وفوق كل سقف وتحت كل أرض، خط بياني صاعد، يأتي في مؤامرة ومصحوبا بجريمة، مجانيا وبلا ضغينة، هادرًا وصامتًا ومجتاحًا وساكناً، بسببٍ وبغير.

(6)

رجال القوات الخاصة انتشروا في كل الحارة، اعتلوا الأسطح واحتلوا الشرفات وأمّنوا المداخل وغلّقوا كل منفذ، تحركوا في رشاقة واستعراض وبأس، بدروعهم الواقية من الرصاص، عضلاتهم المنتفخة، أكمامهم المشمرة، عروقهم النافرة، نظراتهم المصممة، أحذيتهم عالية الرقبة اللامعة الصارمة، أصابعهم على زناد بنادقهم الآلية المحمولة على أكتافهم بشكل متقاطع مع صدورهم ومستعدة للضرب في أي وكل لحظة..
عربة (تويوتا بوكس) تابعة للشرطة اقتحمت الحارة في سرعة قبل أن تقف في منتصفها تماما، في صندوقها الخلفي جلس بعض رجال القوات الخاصة، الأقنعة تغطي وجوههم، بنادق القنص بين أرجلهم، إلى جوار السائق جلس عقيد بشارب حازم، قفز من العربة، بين يديه مسدس ستة ميلي، أمسك مسدسه بيديه الاثنتين، ساعداه مضمومان قليلا نحو صدره، سار إلى جوار العربة والتي صحبته في حركته ببطء، خطواته هادئة، عيناه تجولان في كل الأبنية والشرفات، مسدسه يلاحق عينيه..
عاود الركوب، أمسك الميكروفون، ضغط على زر تشغيله.
- مافيش فايدة يا ناجي.. أخرج وسلّم نفسك بدل ما تئذي نفسك وتئذي الناس دي اللي مالهاش ذنب.

ذرة رمل تهوي بنفس قوانين الفيزياء على كومة من الرمال، تنهار بها، الانهيارات أغلبها بسيط، أحدها وبنفس القوانين وبغير معجزات أو خوارق يكون عنيفا وكبيرا، يذهب بكل الكومة.
الداخلية لم تترك حادث اغتيال المعلم إبراهيم يمر في سلاسة، مات والقاتل مجهول والحادث على الأغلب دافعه الانتقام وأعداء الرجل كثر وجلهم يملك حجج غياب والأدلة لم تكن ولن تكون كافية.
لا أحد يعلم يقينا السبب في اهتمام الداخلية بالحادث، على الأغلب ولا رجال الداخلية أنفسهم. على المقهى وبين الناس ومن حسين ومحروس وأيمن أستمع إلى تعليلات كثيرة غير مقنعة أو مكتملة المنطق.
موت مرتضى كقنبلة تفريغ ضربتنا في عنف، قذفت بمجموعتنا كل واحد في جهة، محطم ومهشم بأوجاع وجروح وكسور كثيرة من الصدمة، تركتنا أشلاء، بالكاد نلتقي بعد كثير من المواعيد المضروبة التي لا يُقدّر لها الاكتمال.
حسين أغلق عليه عالمه، فقط بحكم العشرة ومن وقت لآخر يتصل بي، أحيانا يستجيب لطلب لم شمل مجموعتنا، لا يعتذر لانشغاله، حسين أصبح كئيبًا، صامتًا، لا يشارك في لعب الطاولة، يعتذر في هدوء، يكتفي بالمشاهدة، ترديد بعض النكات الفارغة من المعنى والحياة، يقولها بمخاض صعب، حسين محني الظهر، كثير الصمت كأنه لم يرَ موتا من قبل.

حسين لا يحاول الكلام أو البوح بما فيه، في المرات القليلة التي جمعتنا بعد موت مرتضى جررته أكثر من مرة إلى الحديث، تكلم وسترتاح، يدّعي أنه ليس لديه ما يقوله، أن لا شيء به، أنه في خير حال.

محروس بقى على عادته في قضاء أمسياته على المقهى، انتظم في شلة جديدة مدمنة كذلك على لعب النرد.

محروس يسخر من صمت حسين ومن حيرتي ومن غياب أيمن، هو يعاشر الموت ولا يهزه أو يرعبه، صحيح أنه ضبط نفسه في لحظة تأثر لكنها أبدا لا تدوم.

مقيمٌ مع الموت والحياة، يقر بهما بجرة قلم، معدلات صرفه للأوراق زادت لكنها سنة الحياة، لا تبقى على حال وسبحان من له الدوام، يدخن السجائر بيد مهتزة قليلا ويرمي الزهر بيده الأخرى، ينفعل مع كل رقم يعرضه الزهر.

قالوا إن الحوادث ضد رجال الداخلية ومن يتعاونون معهم كثرت ولابد من وقفة، هذه الوقفة بدأت مباشرة عقب مقتل المعلم إبراهيم، قالوا إن المعلم إبراهيم ليس مخبرا عاديا، مقتله لم يكن حادث انتقام عادي، هي معركة على كوادر الحكومة والعصابات بدأت بالمعلم إبراهيم وربما لن تنتهي قريبا. المعلم إبراهيم ليس رجلا عاديا أو مخبرا نمطيا، المعلم إبراهيم (فرخة بكشك) للداخلية، معلوماته في غاية القيمة، مطلع، نطاق عمله شديد الاتساع... الانتقام لم يكن من المعلم إبراهيم وحده، هناك رتبة كبيرة في الداخلية يقصدها نفس مسدس الانتقام، هي التي أقامت الدنيا ولم تقعدها.

مشكلة أمثالي من رجال العلم والرياضيات والفيزياء أن هذه الصور المنطقية التي يفرضها العالم لا تجدي معنا نفعا.. أنا مثلهم مجنون تماما بحسب العامة، لا تقنعني أي من تلك الصور والفروض، أحيانا تنفلت مني الأمور تماما فلا أرى اتصالا بالأساس بين الأسباب والنتائج، لا أسباب هناك ولا نتائج تحكم ذلك العالم، هي فقط أحداث متعاقبة، لا رابط يجمعها، الحريق لم ينتج من إذكاء النار، أنا لم أقفز لأنني ضربت الأرض بقدميّ.. هي فقط أحداث متوالية، لحظات محكومة بأرقام مهولة من المعطيات والمتداخلات، ذرات رمل تسقط الواحدة تلو الأخرى بلا رابط يجمعها أو موجة متصلة.

فجأة رأيت العالم أزهى من المعتاد، الشمس ساطعة، النسمات رقيقة ومنعشة، ترفع وتهدهد، أمتلئ بطاقة شاب في العشرين، إلى جوار ميري أقف في شرفة شقتي بزهراء المعادي، لأكثر من ثلاثين عاما ومنذ كانت معنا في نفس المشروع البحثي أنا وتوم، ومنذ أفقت من دوار الخمر لأجدها إلى جواري في الفراش، منذ ذلك الحين لم أرها إلا صدفة، العام الماضي رأيتها في فندق بواشنطن وأنا في زيارة لابني المحامي في إجازة من إجازاتي، تعرفت عليها فور وقوع عينيّ عليها رغم مرور الأعوام دون أن أراها أو أن نتواصل، ميري عملت بالحكومة، باتت على اتصال بجل القيادات العسكرية والأمنية المتنفذة هنا في أمريكا، تخلت عن البحث العلمي -ربما- لصالح العمل الحقيقي، تطور للحكومة شفرات جديدة أو تحلل النتائج والبيانات التي يقومون بجمعها، لا أعرف، ما أعرفه أنها

أصبحت تتمتع بنفوذ كبير عبر اتصالها بمراكز اتخاذ القرارات، لا تتكلم كثيرا عن عملها، وإن كان بإمكاني إدراك ما باستطاعة ميري تقديمه لهم من خدمات بعقلها الفارق عنهم وعمن يوظفونهم للعمل لصالحهم..

لا أعرف لكنني استشعرت اضطرابا ورغبة عارمة في الحديث إليها، عيناي بين الطبق أمامي وتقطيع اللحم وبين ميري، جميلة كما هي، لم يؤثر فيها الزمن، بشرتها على نضارتها، أنيقة كعادتها ورشيقة، تضحك فأنتشي، يوسف ابني يأكل في حماس، يمضغ في نشاط.

ألقيت بالشوكة والسكين، مسحت يدي وفمي في الفوطة أمامي ثم ألقيتها على طرف المنضدة، استأذنت يوسف ونهضت، سرت نحو منضدتها، تعرفتني على الفور، صافحتني في حرارة، نهضت منتفضة وضاحكة، خبطت المنضدة وهي تقوم، فاهتزت بكل ما حملت من صحون وشوك وسكاكين، تأوهت وفي عينيها اعتذار للجالسين، قبل أن تصافحني وتقبل خدي وأقبلها، دعتني للجلوس، اعتذرت

- من الواضح أنك مشغولة..
- وإن يكن..

نظرت للمحيطين بها، جميعهم في بذات كلاسيكية ورابطات عنق أو بدل نسائية.. قدمتني لهم..

- نحن وكل ما نفعله عالة على ما يقدمه رجل مثل هذا، هو وزملاؤه لا يثرون معارفنا أو يطوِّرون قدراتنا البشرية فقط، بل يغيِّرون من الطريقة التي نرى بها العالم، يخلقونه من جديد في أعيننا..

أحرجتني المجاملة، هززت رأسي في بلاهة ولم أجد ما أقوله.

- ميري كانت أنبه باحثة وزميلة التقيتها.. أنتم محظوظون بالعمل معها.

ارتجت بضحك عالٍ وساخر

- شكرا على المجاملة الرقيقة.
- أعتذر منكم جميعا لأنني قطعت عليكم غذاء العمل ويبدو أنكم مشغولون.. أود أن أترككم لأعمالكم، تواصلون حديثكم.
- على العكس (هتفوا جميعا)

حصلت على رقمها وحصلت على خاصتي، تراجعت خطوتين للوراء وأنا ناظر إليها، لا أريد أن أبعد عينيّ عنها قبل أن أستدير وأعود لمنضدتي سريعا، عيوننا -خلال جلستنا التي لم تستمر طويلا- التقت لمرات عديدة، في البداية كنا نخفض أبصارنا ونداريها ونبتسم ثم بتنا أكثر جرأة نستمتع بها، نهضت لتنصرف مع من معها وحيتني من بعيد، بادلت تحيتها بتحية وابتسامة ونفس عميق.

لا أعرف من الذي بادر بالاتصال، أحتاج للعودة بالزمن إلى الوراء وأستطيع أن أعود عبرها، هي تحتاج إليّ، تثق بي وتطمئن بالحديث معي، هكذا أخبرتني، عوالمها متلاطمة، لا تنسى كل هذه الفوضى إلا بصحبتي، لا أعرف من منا كان صاحب فكرة تمضية الإجازة معا في ميامي، على الشاطئ وتحت سماء مفتوحة وبحر ناعم، لامع، بلا قرار.

أقترب منها في الشرفة بشقتي بزهراء المعادي، أحتضنها من الخلف، تلتفت نحوي بعينين متسائلتين، قبلتها في عنقها ثم استلمت شفتيها، أضمها إليّ في قوة، أسحبها نحو الداخل..
ميري لم تتزوج، ضَحِكت كثيرا للدهشة التي وَجَدتها على وجهي عندما أخبرتني بذلك

- وهل أصاب العمى الرجال؟!
- تقريبا الرجال يخشونني.. يستريحون للعمل معي فقط، ربما لقاءات حب وجنس عابرة، علاقات لا تستمر طويلا.

قالتها بتهكم وتأثر.
هي ترغب في الحديث أكثر مني، كأنها خرساء تحمل كل أسرار العالم وهمومه، عاد لها النطق فجأة، كأنني الرجل الوحيد في العالم غير الأصم.

- هل تظن أنني لست مراقبة وأنا بين أحضانك؟

ابتسمت لها في لامبالاة.
لشهور ظللنا نختطف من الحياة أياما وساعات لنلتقي، نستجدي الإجازات وننسقها معا، أذهب لها في واشنطن أو تأتي هي إليّ أو نلتقي في ميامي.
لمحت ذلك في وجهها أكثر من مرة، في البداية تجاهلته ثم كذّبته ثم لم أستطع، ملامحها معقودة ووجهها متقلص دوما، ربما من الألم، ربما من الإجهاد والقلق، لا ينبسط إلا إذا رأتني، فجأة تتهلل وتشرق وتقبل عليّ، كقطة أليفة تمسح وجهها في كتفي ثم في صدري، تتراخى تماما وهي بين يديّ وتبتسم لعينيّ.

- أعلم أن ما سأقوله سيثير غرورك.. تذكر تلك المرة التي سكرت فيها ربما للمرة الأولى، في الحفل الذي أقامه لك توم على شرفك، يوم استيقظت لأجدني عارية وأنت إلى جواري، أنت لا تعرف أنني في ذلك الصباح قد استيقظت قبلك بفترة، شعرت بذلك الضجيج برأسي والزغللة بعينيّ، ابتسمت كثيرا عندما رأيتك لجواري، ارتحت إلى أنه لم يكن حلما، لكنك تعمدت أن تتجاهلني بعدها، لا أدري كيف كنت قادرا على التصرف بتلك القسوة عليك وعليّ، لم أدرِ ما الذي كان يدور بعقلك وقتها، تعمدت ألا تلتقي بي ولو صدفة، هجرت مجموعتنا وعلمت أنك رفضت فيما بعد أن يجمعنا أي بحث، طلبت أنت من البروفيسور ذلك.
- كنت أحمق..
- أو كنت تهرب من خطيئتك، قال لي توم ذلك، عندها قررت ألا أتعقبك، أن أكون أقسى منك عليك وعليّ، أن أهجرك كما تهجرني، لست بحاجة -واعذرني في القول- إلى أغبياء. أوشك أن أعرض نفسي عليهم ويتمنعون بلا سبب منطقي واحد، غير أنهم يرون في علاقتي بهم إثمًا، لا أستحق هذا ولن أكون مسكينة إلى ذلك الحد.

يومها وضعت يدي أمام فمها لتتوقف قليلا عن الكلام واللوم، مسحت طرف عينها بيد حانية ومرتعشة

- أرجوكِ بلا دموع.

ضممتها إليّ في قوة، صدرها في صعود وهبوط.

فرقت بيننا الأيام، نستني ونسيتها، هي عملت بالحكومة وأنا بالبحث، جميلة هي وذكية، اجتماعية، مسيطرة، طموحة بلا حدود، لا أعرف لِمَ اعتقدت أنها في ذلك الزمان الماضي كانت مستعدة أن تضحي بكل شيء لأجلي، تعيش معي فقط، حتى وإن انتهى بها الأمر إلى العمل للأبد كمساعدة أو حتى سكرتيرة لي، حياتي كانت لتتغير. الآن أنا على استعداد لترك كل شيء من أجلها، مفارقة العالم بكل ضجيجه، نذهب في رحلة استجمام طويلة، تنتهي بموتنا.

اخترت الزوجة المثلى بعقلي، حينها لم أفكر في ميري، نسيتها تماما، لم أكن أراها إلا كعروس بلاستيكية هشة، لم أعتقد فيها كزوجة أو أشتهيها كحبيبة.

زوجتي عشقتها من كل قلبي، منذ أول لقاء جمع بيننا، خجلها الشرقي الساحر، لهجتها السورية التي اكتسبتها من أبيها، جمال الشام وصفاء بحيرة طبرية، كان عالما جديدا ينفتح زاهيا ومبشرا وخلابا.

هذا الحب الذي نما بهدوء، توهج كشمسٍ هادئة وشابة، لم تشتعل فجأة كنجم ضخم "سوبرنوفا" يستهلك كل وقوده في فترة زمنية قصيرة ثم يموت منكمشا على نفسه، ساحقا كل مادته، كثقب أسود ينتهي مُدَمَرا ومُدَمِرا كل ما يحيطه ..

حب تأجج في هدوء، مع الوقت ضرب بجذوره فينا، تعمق ولم يذبل حتى اللحظة.

أقسم أني ما زلت أحبها، أن صورتها ما تزال على "الكومودينو" المجاور لفراشي، أتطلع إليها كل ليلة، أن الذكريات التي تجمعنا لا تفارق خاطري، أراني وإياها في المنزل وعلى الفراش وفي إجازة، في الطائرة وعلى ظهر قطار، على الشاطئ وفي مصر وسوريا، في كل وقت وكل مكان، حتى ميري علّقت على صورتها عندما رأتها على "الكومودينو" بشقتي بزهراء المعادي، ابتسمت ساخرة.

- من الواضح أنك لن تكون لي أبدا.
- وهل كنت أنتِ لي أبدا؟

ميري قطة جميلة، تمدد جسدها وتهزه في نعومة قبل أن ترتاح على فخذي، لكنني أبدا لا أستطيع أن أدرك ما وراء نظرات عينيها اللامعة، صحيح أنني في ذلك الماضي البعيد كنت ذكيا ووسيما، شابا ممتلئا بالصحة والشغف، لكنني كنت سمينا و "مدب"، لا أتقن فنون الحوار أو المجاملات، منغلقا على ذاتي ومغرورا إلى أبعد الحدود، أرى في نفسي وكأن ليس كمثلي شيء، أعيش على هامش المجتمع، لا أرغب في إثراء أي تواصل، وحيد، معتز بوحدتي وشرقيتي، غير أني كنت غريب الأطوار، نظراتي عادةً شاردة وثابتة، أتحاشى النظر في العيون والوجوه، مستعلٍ، منفوخ كبالون.

كنت منبوذا، لا أرغب في صحبة ولا يرغبون كذلك، أو على الأصح لا يرونني بالأساس أو يعنيهم وجودي.

ميري وتوم، الكوة التي انفتحت لي على العالم، الضوء الذي نبهني إلى الشروق على الجانب الآخر من الأرض، الرسل الذين جاؤوني مبشرين.
ربما شدّها الفضول إليّ، لم تكن لتفضلني على أحد، هي فقط رغبت في اختراق العالم الذي ورائي، معرفة ما في أعماقي، العبور إلى تلك العوالم السحرية والصور الذهنية التي رسموها لها عن الشرق من خلالي.
الآن جئتها أنا من ذلك الماضي السحيق، كانت تجلس على مرمى البصر فلم تتعرفني، أنا الذي تعرفتها من أول نظرة، ربما احتجت إلى بعض التدقيق البسيط، انتشيت فجأة وتغير مزاجي ورغبت بشكل ملح في الحديث إليها، رأيت الماضي وكأنما يُعاد من جديد بكل جماله وزخمه والآمال المفتوحة على كل احتمال، احتفظت بكل قسماتها الجميلة وبذات الابتسامة الواسعة، حتى نضارتها بقيت كما هي، نفس الجسد الرقيق، الرشيق، المحيِّر، الملامح الهادئة، النظرة الشهوانية الراغبة، طالعتني بها عندما اقتربت من منضدتها فارتعدت وجمد الكلام على لساني. صافحتني فعدت ذلك الشاب الثلاثيني الذي لم يصافح امرأة أجنبية في حياته، ضمّتني ومنحتني قبلة دافئة على وجنتي وكأنني سقطت في ثقب دودي زمني، سحبت نفسا عميقا وأصابني الدوار لوهلة، استندت إلى سطح المنضدة المستديرة التي تجلس إليها وضيوفها.

ميري رسالة من الماضي طويت ثم أدخلوها في زجاجة وقُذِف بها إلى أعماق المحيط، الزجاجة مرت على كل الموانئ، لم تتهشم، لطمتها الأمواج والأمطار، اصطدمت بالشواطئ وارتدت عنها قبل أن أجدها، أكسرها وأقرأ المسطور فأنتشي، أتمدد مرتاحا.

أنا كذلك كنت لها إكسيرا، جاءها من الماضي، رسالة في زجاجة رموها في المحيط وعادت لها بسطور منمقة ودافئة.

سألتها عن لقاء في خجل وخوف، رحبت ثم سألتني عن آخر، مكالمات الهاتف لا تنقطع، نغتسل في ذكريات بعضنا، نستظل بظل أحدنا الآخر، عجوزان مستهما الكهرباء، مفعمان بالحياة فجأة، ينظر كل منهما في عمق حدقتي الآخر ويرى نفسه وقد صار ربا وعبدا مغفورا له.

- ستعجب وربما لن تصدق لكنها الحقيقة.. منذ رأيتك حياة أخرى بدأت تدب فيّ.. كل شيء من حولي نمطي، الحياة روتينية بشكل ممل، معتاد، الضحك لم يعد من القلب، حتى العمل أشعر كأنه فارغ من كل معنى بلا جديد، حتى ظهرت أنت.. كنت أراك من بعيد عبر الصحف أو التلفاز وأبتسم، لم أدرك أنك صرت أجمل، أوسم، أذكى، يعجبني جدا طعم شفتيك.

رجال العمليات الخاصة تمركزوا على الأسطح المواجهة للشقة التي يقطنها ناجي، اتخذوا مواقعهم خلف الأسوار، متسترين بالكراكيب الملقاة في غير اعتناء، أعلى عمارتين مجاورتين التمعت بندقيتان لقناصين، داهموا العمارة وقفزوا من الأسطح

المجاورة إلى سطوح عمارة ناجي، نزلوا السلم من السطوح واعتلوه من مدخل العمارة في ذات الوقت، قفزوا الدرجات في سرعة، اقتحموا الشقة ككماشة محكمة.
فتشوا كل شيء، فتحوا الدولاب، بحثوا تحت السرير، رموا المراتب، ألقوا بالسجاد والحصير، نظروا داخل الأواني، فتشوا كل شبر.
ناجي شاب صعيدي من عائلة كبيرة منتشرة في كثير من بلدات الصعيد، غير أنه شقي، قبل مقتل المعلم إبراهيم بيومين تشاجر معه مشاجرة كبيرة، كاد يفتح مطواة في وجهه، لا أحد يعرف السبب الحقيقي للشجار، ذهبوا إلى أنهم ربما اختلفوا على عمولة أو مصلحة كانا سيخرجان بها من عملية مشبوهة، لا أحد يملك حقيقة ما حدث أو التفاصيل.
ناجي ليس القاتل، ناجي وإن قتل لن يقتل في الظهر ويعود لبيته وينام في فراشه كجبان، رفاقه وأهله دفعوا بذلك.
أرجل الداخلية امتهنت كل البيت، اقتحمت كل الغرف، لم يعنها كثيرا صراخ النسوة ولطمهن للوجوه، بكاء الرضيع..
ناجي لم يكن هناك.
بدّوا مرتبكين جدا، النقيب الذي وقف في الصالة ينتظر عودة رجاله المنتشرين في كل غرف البيت، استقبل أيديهم الخاوية بنظرات دهشة وضيق شديد، أمسك اللاسلكي وبصوت منكسر همس فيه: "ناجي مش موجود هنا يا أفندم".

العقيد -من فرط توتره- ضغط في قوة على جسم اللاسلكي قبل أن يلقي به على كرسي العربة، يتقدم بنفسه من بيت ناجي وقواته على الجانبين تؤمنه وتؤمن كل الحارة، وتراقب كل رائح وغاد.
كانت نظريته أنهم مخترقون، ناجي علم بقدومهم وهرب، هناك من أبلغه من داخل القسم أو المديرية بتحركهم صوبه، ويقولون أنه ليس بجبان، كانوا في يقين من تواجده في الحارة، مخبرهم نقل إليهم النبأ، رآه وهو يدلف إلى الحارة، راقبه، انتظره حتى صعد إلى شقته قبل أن يتصل بهم ويطلب منهم بدء الهجوم.
جمعوا القوة في لا وقت.
العقيد أشرفَ بنفسه على جمعها، أراد الضربة أن تكون حاسمة وقوية، ناجي مجرم غير هين، يتزعم مجموعة من البلطجية والسوابق ويتاجر في كل شيء، العربات المسروقة والمخدرات والسلاح، إلقاء القبض عليه ضربة تفيد في أكثر من اتجاه، تربك عالم الجريمة الذي يرغب في التمرد مؤخرا على سطوة الأمن، قتلوا إبراهيم ولا أحد يعلم ما قد يخططون له مستقبلًا، ذلك سيدفعهم للتفكير ألف مرة قبل أي قرار يتخذونه منفردين، سيجبرهم على العودة لجحورهم واللعب معهم بعقل والاستسلام لسطوة الأمن من جديد.
القبض على ناجي سيريح الحارة، ربما يحصل على ترقية بعد أن يعلن ناجي مسؤوليته عن عدد من الجرائم الكثيرة التي ارتكبت في هذه الدائرة.
ناجي فص ملح وذاب.

العقيد صعد بنفسه السلم عدوا.

- فين ناجي؟!

قابلته وجوه واجمة لا تحمل أي إجابة

- المَرَة هرب.. طيب إحنا هنعرف نخليه يظهر إزاي

دفع الباب بقدمه في ثورة وصرخ والدماء تكاد تنفجر من وجهه.

- فين ابن الكلب؟!!

لم يقابله إلا صمت مطبق وعيون حادة، غاضبة، تفكر في الانتقام.

- بقى كده!؟! .. طب جرجر لي المومس مراته دي على تحت.. يلّا ..

أمين الشرطة لكزها في كتفها، حاولت التمنع، فجرّها، تشبثت بالأرض والأثاث، ابنها ذو الأعوام الخمسة جرى ليمسك بها، منعه من الوصول أمين شرطة آخر، الطفل ضربه، عضه، خربشه، الأمين وبقبضتيه سيطر على حركة أطراف الطفل، الطفل صرخ وبكى، ابنتها ذات الأعوام الأربعة انكمشت في نفسها، مرعوبة، تبكي بنهنهات مكتومة وترتجف.

عباءة زوجة ناجي تمزقت من عند الصدر، الأمين استمر في جرجرتها، ركلها بقدمه في بطنها، صرخت "يا ولاد الكلب.. يا ولاد الكلب".

- علشان جوزك المره يبقى يهرب تاني.. هيروح فين؟! هيظهر زي الكلب..

أكبر أزمة للعالم أنه مفتوح على كل احتمال وكل تأويل، حتى العلم ذاته بكل قواعده وفلسفاته خاضع للتغير والأهواء، بقيت فقط الرياضيات فوق البشر وفوق العالم، لا تقبل المداهنات، الأزمة أنها مبنية كذلك على قواعد المنطق البشري، معادلاتها وحدودها بلا حصر، احتمالات مفتوحة على ما لانهاية، وخواص تعجز اللغة والفهم عن إدراكها، وربما ثقوب كلما انسدت بزغت في العباءة أُخَر.
برنامجي محاولة للمعرفة، الوصول إلى الحقيقة بلا هوى شخصي أو براعة لحظية لعراف، يصدف مرة ويجانبه التوفيق ألف.
القلق ضارب فيّ، يمنعني النوم، فإن نمت استيقظت فزعا، ميري تحاول تهدئتي والمسح على رأسي، تقبلني في جبيني، تدعوني للنوم، رأسي مدفون في صدرها، أنفاسي بين ثدييها. أستشعر الأمان في أحضانها، أذكر لياليَ كثيرة كنت أهرع لفراش أمي أسألها فقط في منتصف الليل أن تستيقظ لتضمني، تنظر إليّ في لوم وعتاب نظرات يظللها جفن مرتخ ناعس، لكنها لا تضن عليّ بضمي، ساعتها أرتاح ويتسلل الخدر إليّ رويدا، أغمض عينيّ وأنام، أو يهدأ بالي فأعود لفراشي.
في كنف ميري أرتاح، أشتم في جسدها رائحة ترخي أطرافي وتدفعني للاستكانة والطمأنينة، أعاود النوم ملء جفوني.

ميري تركتني وذهبت لتستحم، أتحرك بغير هدف، أجلس إلى حاسوبي الذي هجرته لأسابيع، أحرك فأرته لتضئ الشاشة، كان مازال يعمل، على سطحه ظهرت النسخ السبع لبرنامجي، الأرقام وهي تنهمر، في غير اعتناء نظرت إليها.
عيناي جحظتا من الدهشة، وجيب قلبي قوي وسريع، ربما يصل لمسامع ميري في الحمام، يغادر الشقة ليسمع كل المعادي، مصر، العالم، أرتجف من الدهشة والرعب، فجأة أستشعر جفاف حلقي، أنهض، أتحرك بلا هدف جيئة وذهابا قبل أن أتمالك نفسي، أعاود الجلوس إلى الحاسوب، أتأمل شاشته، أعاود دراسة أرقام النسخ السبع لبرنامجي.
الأرقام عادت لتلتئم، كانت قد تشتتت في سبع نماذج مختلفة، لكنها عادت لتندمج، بدت قريبة جدا من بعضها، بفروق طفيفة جدا، السبع نسخ عادت لترسم نفس الصورة، تبشر بنفس الشيء، ترى نفس المستقبل، تقول بنفس النهاية..
الأرقام في غاية الجنون والعرفان، خارقة ومرعبة..
كل نموذج كان فقط يدور في فلكه الخاص ليصل فجأة لذات الدرب، وصلت جميعا لنفس النتيجة لتقول بالحقيقة عينها.
كانت يداي ترتعشان، عيناي ترجفان، أحاول تنسيق الأرقام وترجمتها للخروج بمعنى، بدت متمنعة وبدوت مرهقا وتعبا.
الأرقام على تعقيدها تتبع ذات النمط، في إمكاني التعرف عليه بنظرة سريعة، للأرقام نفس نمط أرقام النسخة الأولى للبرنامج ترتيبا، بدت كأنها تهوي، كأن هناك فجوة انفتحت لتبتلع العالم وكل شيء، أرقام تبشر بموات ومآس في أعقاب مآس،

كأنه انهيار أرضي يبتلع كل بر مصر، رجة عنيفة.. زلزال تتصدع له الجبال.. تهبط السهول، كل شيء يغمره الماء.. يغرق، جبريل يرفع العالم على جناحه.. يصعد به ثم يتركه ليهوي.

أكبر أزمة تواجه العلماء الحقيقيين، أن الأرقام جافة والحقائق لا تقبل العبث أوالمخاتلة، الأرقام واضحة، حدية، قاطعة، أقف أمامها صغيرا، عاجزا، العلماء أنصاف آلهة؛ يعرفون كإله لكنهم لا يملكون مقدرته على عكس ما شاء، فقط يرقبون الأرقام وهي تنهمر، التجربة وهي تعبر عن مكنونها، النتيجة والبرهان وكفى، لا أملك ولا يملكون قلب الأوضاع، فقط يعرفون بالطوفان، لكنني أضعف من أن أبدل خواصه، أبشر به وأنتظره ليسحقني..

الأرقام كموت يزحف، لا فرار منه، يبتلع كل شيء، لعنة تتنزل من السماء أو فعل أرضي بشري كارثي، يعم.

الأرقام تبشر.. تعلن عن موت قادم لا محالة.. تلف.. تدور لكنها تتقدم بخطى ثابتة نحو الهاوية السحيقة، لا فكاك.

كعالَمٍ يخضع لقوانين الديناميكا الحرارية، تنتقل فيه الحرارة من الأسخن للأبرد، تنتقل.. مع انتقالها تترسخ الحياة.. تنشط، حتى تكون لحظة تتعادل فيها كل حرارة العالم، الإنتروبيا في أعلى صورها، حالة من الموت العام.. الفوضى تغمر كل الكون.

هل يمكن أن تكون الأرقام بتلك القسوة؟! تنتقل كجرثومة خبيثة من بر مصر حيث كانت التجربة والأرقام والتحليل، لتعم الكون، تنتشر لباقي أفريقيا وأوروبا وأمريكا..

الهاوية ضخمة بحيث تسقط فيها كل الأرض، موت نهائي وخاتم، فقط يتسارع بمعدلات مختلفة بين البلدان، قطع "دومينو" متراصة تسقط في توال مفزع، أهتف فزعا "يوسف.. مصطفى.. ميري..".
أشعر بالقبضة وهي تعتصر فؤادي، أريد أن أنهض فترتخي أقدامي من تحتي، رأسي طوفان من أفكار وصراع، خواطر، مرارة، ألم.
ميري جاءت رطبة، تتمايل في ثوب الاستحمام، تتراقص وهي تقترب مني مبتسمة، تفزع لمرأى وجهي، تمسح بيدها عليّ وقد تقرحت عينيّ، جلست أمامي متسائلة، تنقل بصرها بيني وبين الحاسوب، حاولت أن تسحبني بعيدا، تدعوني لإراحة ذهني وروحي ولو لدقائق، لا أقدر على النهوض، أتشبث بالكرسي في إصرار، تنقل بصرها بيني وبين الشاشة في قلق، أحاول مراجعة بعض تفاصيل العمليات الحسابية، المعطيات البدئية، التدقيق في الأرقام، مراجعة دلالاتها والصورة الصحيحة لفهم انبعاثها وتطورها وتشعبها وترجمة نتائجها وانعكاساتها، عيناي جاحظتان، ميري تحاول التداخل معي، دفعي نحو الكلام والثرثرة، مراقبة الأرقام ومحاولة الحصول على معنى أو إجابة أو دليل.

لأسابيع لم أقابل حسينا، أو جماعته، وكأنما ارتاح إلى أنني قد وجدت ميري ليلقي بعبئي من فوق كاهله، اكتفى بمكالمات متباعدة، يطمئن بها عليّ، بالأمس طلب لقائي، أراد الخروج

ليتنشق بعض الهواء الجديد بحسب تعبيره، لا يريدنا أن نلتقي في شبرا، هو سيأتي إلى المعادي، سئم شبرا وما يجري فيها. تجولنا قليلا على كورنيش المعادي، قبل أن نستقر على كوفي شوب إلى الداخل قليلا من الكورنيش، حسين ساءت حالته عما تركته عليه، اعتقدته سيكون قد تخلص من آثار رجة مقتل مرتضى، بدا أكثر حزنا، قسماته معقدة ومشدودة، وجهه ضعيف ونظراته مطفأة، عيناه لا تستقران على شيء، تجولان في عصبية، يسير إلى جواري محني الظهر، رغم أنه من طلب اللقاء ورغب في الفضفضة لكنه لم يكن يتكلم، ساكن وشارد ومنكسر، وجهه مسود، أربت على كتفه، ينظر إليّ نظرة مريضة.

جلس ثم فرد رجليه، أطلق تنهيدة حارة، بلا مقدمات قال بحشرجة، بلهجة محايدة، صوت لا يكاد يخرج:

- عرفت إن أحمد ابن الدكتور أيمن .. البقاء لله ؟

حاجبيّ انعقدا وقلبي مسته الرجفة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. امتى الكلام ده؟
- إنت مابتشوفش أخبار؟ دي الدنيا والعة عندنا فـ شبرا.. إنت مش عايش ف البلد دي ولا إيه؟

كان كل شيء من حولي يسير هادئا، العربات، حركة المارة، نسمة المغرب الخفيفة التي تحاول التعافي من حر النهار، هزات فروع الشجر، حركات فتى المقهى السريعة، النشاط المعتاد للزبائن.

منذ جاءت ميري وأنا منعزل، أكتفي بالحديث إليها وتصفح الإنترنت والتسلي بأي شيء، الأحاجي، الكتب الخفيفة، المالتي ميديا. معها جلت كل بر مصر، انتظمنا في رحلات لكل مكان، إسكندرية، مصر القديمة، شرم الشيخ، الغردقة، الأقصر، أسوان، نسيت أني مريض رغم أنها اصطحبتني إلى جلسة الكيماوي مرة، نسيت أمر بحثي وارتحت لذلك النسيان، فقط أتصل بالعالم بمحادثات هاتفية خاطفة مع ابنيّ أو حسين وأحيانا محروس أو الدكتور أيمن.
حسين أمامي أحاط كوب الشاي بكفيه الاثنين، يرفعه ويرشف منه رشفات بسيطة ثم يعود به إلى سطح المنضدة الصغيرة (الطقطوقة) في رتابة، يبذل مجهودا عظيما في استجماع نفسه والنطق بمعاناة، جاءني هربا من الجو العام هناك، العالم كله راكد، الصمت خانق وجاثم، الترقب سمة الجميع، الشوارع خالية، قاحلة، حزينة، متربة، قاسية، الجدران تحاصرهم توشك أن تنقض عليهم.

- أحمد كان قدام بيتهم.. إنت عارفه.. بيتهيألي شفته مرة أو مرتين لو أفتكر.. جت له رصاصة في راسه وطب ساكت.. مخه منطور على الأرض والحيطة اللي كانت جنبه.

لا أحد يعلم تفاصيل الأحداث أو كيف اتفق لها أن تقع أو بأي ترتيب كانت، بعد يومين فقط من اعتقال زوجة ناجي كان هناك هجوم مسلح على القسم، أسلحة نارية ظهرت فجأة في وسط الشارع والمارة، طلقات في الهواء ليفزع الجميع، دخان

وحريق في خلفية المشهد، صرخات وعربات تحاول الفرار، مارة تتقاطع خطواتهم، لا يعرفون أي اتجاه قد يحمل النجاة.
احترق القسم كله، سقط بعض المجندين وضابطان، ذاب الجناة، سقط منهم فردان لكن الباقين فروا.
حملة من رجال القوات الخاصة معززة بالهليكوبتر وبعناصر من القوات المسلحة تهاجم معاقل إجرامية مسلحة في وسط الجبال وبعض قرى الصعيد، هدم أوكار، دك أراضي، إزالة مباني من الوجود.
الحي الذي يقطنه حسين استحال إلى ثكنة عسكرية، لا أحد يدخل أو يخرج، رجال الأمن في كل مكان، مداهمات بلا موعد وحظر تجوال، لا دخول أو خروج إلا بعد إظهار تحقيق الشخصية والتيقن من العنوان المدون به.
فقط العم نور تمرد على النظام المفروض، لم يغلق دكان الفول خاصته مع أذان المغرب، صمم على فتحه، عندما تحدث معه ضابط الشرطة اللواء لم يتراجع عن فتح دكانه، رمضان قد اقترب، هناك من يصومون وسيستمر في فتح دكانه لمن يرغب في شراء السحور، بقى حتى منتصف الليل، لم يخضع لكل مساومات الترغيب والترهيب، قيل له أن في غلق المحل وطاعته للحظر أمنه، في الليل لن يستطيعوا تأمينه،

هو هدف سهل، رد بأن العمر واحد والرب واحد والرأس قد اشتعل شيبا واقترب جدا من موعده، الدود لن يهمه كثيرا إن تزينت رأسه برصاصة أم لا، اللواء احتد عليه وتودد إليه، بلا فائدة.

لم يأتِ أحد ليشتري منه، لكنه أبقى دكانه مفتوحا حتى منتصف الليل، في صلاة الفجر بعد أن غادر الجامع سقط ميتا، جنازته استحالت لفوضى عارمة، اختلط الحابل بالنابل، انضربت عشرات الطلقات، كان الموت يحصد الجميع، أهل الشيخ نور وسكان الحي ورجال الأمن، الجميع يضغط على الزناد والجميع يتلقى الطلقات، قيل مات (موتة ربنا)، قيل مات مسموما، قيل ضُرِب بالرصاص..

في كل بيت متوفًّى وقاتل ورغبة في انتقام وأنين وتشف وموت كان وموت كائن وموت سيكون..

حسين غادرني وقد تشتت عقلي وركبني الهم والحيرة، تركني كما جاءني، مسود الوجه، محني الظهر، فقط اتفقنا على أن ألتقيه غدا أو بعد غد لنزور أيمن، نقدم له واجب العزاء.

ساعات طويلة أمضيتها أفتش في الأرقام، أحاول إثبات تداعيها، الخروج بحقيقة أخرى مطمئنة، ميري إلى جواري، لم تنهض لتغير روب الاستحمام، عيناها تعلقتا مثلي بالشاشة والأرقام، تقضم أظفارها من القلق عليّ، تحاول نزعي من أمام الحاسوب، السيطرة على انفعالي.

قرب الفجر كنت قد فقدت كل قدرة لي على التركيز، شعرت بتداخل الأرقام والبرامج والمعاني، استحال عقلي إلى معجون، الشاشة إلى وميض ونقاط سوداء، ميري سقطت من الإعياء، نامت على ذراعها وساعدها، وجهها مضغوط إليهما.

أنهض في تثاقل وبصعوبة، أشعر بتنميل شديد في رجلي، أهز ميري في رفق لتنهض، تنتفض وتنظر إليّ بعيون محمرة وتعبة، تنهض في سرعة، تسندني حتى وجدنا الفراش.
لا أعرف هل نمت أم لم أنم، حركة أطرافي كثيرة في الفراش، حركة ميري كذلك على سرير مجاور لم تكن هادئة.
عيناي مغلقتان ونائم، رغم ذلك ذهني متقد، لم يكف للحظة عن العمل، أنفاسي عالية ومتوترة.
أرقامي لا تعني شيئا بالأساس، خرافة أسقطها من ذاتي عليها، أنا من جمع البيانات وأنا من أحالها لأرقام ومعادلات وفوضى وشواش وأنا من جمع النتائج وحللها، أسقطت عليها مني، صنعت أسطورة كبيرة وتلهيت بها ثم صدقتها وسقطت في هوتها والآن توشك أن تنال مني.
تعديل بسيط في المعطيات كفيل بتغيير كل شيء، الوصول مرة أخرى لحالة من الاستقرار والهدوء والتناغم.
الأرقام هي التي انجدلت وتقافزت وعبثت، الأرقام جافة، لا هوى لها ولا رغبة ولا منفعة أو ضرر، الأرقام صادقة مصدَّقة، الأرقام حساسة لكل تعديل أو خطأ بسيط، لكنها حقيقية في ذاتها، لا تخادع أو تداهن أو تجامل أو تدّعي أو تنافق أو تكذب، الأرقام لا تعرف دفن الرءوس في الرمال أو المساومة.

الرياضيات نقية وصافية ومطلقة.
ميري وبعد أن حدقت طويلا في الأرقام، تداخلت معي وحاولت أن تحلل وأن تتبع سير المعادلات والنتائج، ابتسمت محاولة طمأنتي، مالت عليّ وقبلتني.

أشعر أن خوفي مرضي، كلامها منطقي ومطمئن، لكنه لا يؤثر في غدد الخوف عندي وإفرازها، مدى توتري، فورة المشاعر والرجفة التي أعاني.
أستشعر الاختناق، غصة بالحلق، الموت قادم بقوة وعنفوان ليصرعني ثم يعرج على ميري ويغتال ابنيّ، موت مريع وقاس، يجتث الحياة والبشر.
الأرقام قد تنقلب في لحظة، فقط أمنحها بعض الوقت وأراقبها، أترك للمعادلات العنان والحرية لتنطلق، لا أوقف التجربة، أتركها لتعمل لأسبوع آخر أو أسابيع طويلة، الأرقام قد تنعكس، تبزغ منها حياة جديدة في قلب العالم الميت، بذرة تشتعل بالحياة ودون مقدمات.
الهرم الرملي بعد أن انهدم، بنفس حبات الرمال وقوانين الفيزياء والجاذبية والسقوط والاصطدام ينبني.
رغم أني نائم وعيناي مغلقتان والخدر يشملني كلي، إلا أن الأرقام مازالت تهوي على رأسي، مازلت أحاول استيعابها، التدقيق فيها، أنا ضعيف.. واهن جدا.
كانت الستائر تمنع تسلل ضوء النهار، لكنني أعلم بحلوله منذ فترة، عيناي مفتوحتان على اتساعهما، تجولان في كل اتجاه ولا تستقران على شيء، أنهض، أتجه نحو ميري،

أنام إلى جوارها، أضمها إليّ في قوة، فتحت عينيها، ابتسمت قبل أن تفسح لي مكانا لألتصق بها، أدفن رأسي في صدرها، أكاد أبكي من الخوف.
أرتاح.. أطلق تنهيدة طويلة، تمسح على رأسي في حنان.

أستشعر تكور ثديها على صدغي، كان لدنا، متماسكا كذلك الذي لشابة، أحيطه بكفي.. أضغطه، أرغب في أن أفرغ طاقتي وقلقي فيها، أحترق معها في ذات النشوة.. أنسى كل شيء..أتحرر.
رغم علاقتي الممتدة معها، إجازاتنا التي نقضيها سويا، اختلائنا ببعض لأوقات طويلة، التصاقنا الجسدي لكنني لم أرغبها كما أرغبها الآن، لم أقدر على إقامة علاقة كاملة معها في أي مرة سابقة، وهي لم تتأفف، كانت تبتسم وتقول "لقد هرمنا" وتضحك ساخرة مني..
أريد أن أرتجف من الشبق، أحس ارتعادها من تحتي، أن يسري الخدر فيّ، أقذف مائي وتقذف ماءها، تتسارع أنفاسي، أرتاح.
أعصر ثديها بكفي، تتأوه، تفتح عينيها لي، عيناها داعية، راغبة، شبقة، أمص لسانها بفمي، أمرر كفها على ظهري، أنكحها في قوة وعصبية بينما تصرخ من اللذة.

كون نيوتن لم يثبت يوما استقراره، احتالوا بالحدس، الكون الذي بقى لآلاف الأعوام قادرًا على البقاء لآلاف أخرى، أبدا لن يضمحل، لووا عنق الرياضيات، بنوا نماذج خاطئة من الوهم لإثبات ما برءوسهم..

لا أختلف عنهم، أحاول طمأنة نفسي بالحدس، ادعاء تهافت التجربة، البحث عن معجزة تعيد ترتيب أرقام المعادلات،

الركون إلى أن خلف كل موت حياة، أو أن الزمن دوما ممتد ويحمل الحل...
كون نيوتن وبالأساس خاطئ، نيوتن ظن أن الكون ثابت، لم يدرك أنه يتمدد بسرعات خارقة، أجرامه في تباعد مضطرد، من قال أن معطياتك بالأساس صحيحة،؟! أنا كنيوتن، نموذجي بالأساس خاطئ..
أنت مازلت تتلاعب..
عقلي منهك، أسقط إلى جوار ميري، أنفاسي لاهثة، أتصبب عرقا بينما تحاول استجماع نفسها، وجهها مرتاح ومنتش، مازالت ترتجف وعضلات حوضها تنقبض.

التجربة لا تعنيني، الأرقام خاطئة، المعادلات موضوعة، أنا أهذي.. أعلم تماما أني أهذي.. أنني ربما أصبحت مصابا بالفوبيا، منذ تحدثت إلي حسين بالأمس أو منذ مرت الرصاصة إلى جواري وكادت تستقر ربما في رأسي أو قلبي، أو منذ رأيت الموت حاضرا، طاغيا، عنيفا، منذ هجرت ابنيّ أو توفت زوجتي أو مات مرتضى.
حالة طاغية من الفوضى والشواش، عندها تكفي خفقة زائدة من جناح فراشة كي تنهي العالم أو تدفع الكون للتقلص، رصاصة طائشة كي تشعل حربا أهلية، كلب ميت أو فأرة تتعسَّر في الولادة كي يتغير مصيري..

لا أرتجف من النشوة.. أظنني أرتجف من الخوف..

وجع شديد في منتصف صدري، كأن قلبي ينعصر، أحاول تحمله، لم أعد أحتمل، أصرخ في قوة، لا طاقة لي بالألم.
حاد كسكين، قابض كالموت، أصرخ من جديد، أتوسل بميري، يدي على صدري، أستجدي شهقات متعبة.
ميري مضطربة ولهفانة، ملامحي يعصرها الألم، مشتتة بين محاولة طمأنتي، تقديم عون لا تجد له سبيلا وبين البحث عن الهاتف، ضغط أرقام الإسعاف والاستنجاد بها.
أتناول منها التليفون، أضغط أزراره، أقلّب في ذاكرته، أشعر أنها آخر حركات لي، أتصل بحسين، أستصرخه ليأتيني.

في المستشفى تتصل بي الكثير من الأسلاك، إلى أنفي مدوا خرطوما يغذيني بالأكسجين، قبالتي جلست ميري مبتسمة ويانعة، لا ألم هناك وإن ما زالت أنفاسي لاهثة.
أجروا لي قسطرة لتسليك شرايين القلب من جلطة مفاجئة، حسين لم يغادرني إلا بعد أن اطمئن عليّ تماما، شد على يدي مطمئنا، همس في أذني أنه قد اتصل بابنيّ، سيكونان على متن أول طائرة تصل إلى القاهرة.
أعلم أنك تخفين عني شيئا يا ميري، بارعة أنت في المداراة، لكنني أعرف، طلبوا من طبيب الأورام خاصتي أن يأتي لزيارتي، فحصني، اطمئن عليّ، طلب بعض الأشعات، فحصها ثم أعطاهم توصياته..

أخفى عني الحقيقة، السرطان عاد لينشط، يسخر مني، الآن أرغب في مقاومته، التصدي له فيستأسد عليّ، يتفاقم وينتشر، أموت بالبطيء، قطعة قطعة.

الموت يزحف بطيئا وفي تؤدة، غير متسرع، يتقن عمله، جسدي يذوي ببطء، عيناي تغوصان للداخل، أنفاسي متسارعة متعبة، الألم لا يطاق، جلدي ممتلئ بوخزات الإبر..
أرى الظلام يزحف، عيناي تقاومان الموت، لن تستسلما له، شاخصتان.. بلا روح، أسقط في دوار.. دوامات، برودة الموت تزحف على قلبي وتقبضني.

القـــــاهـــرة
أغسطس 2014



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm